محمد بنيس

كلام الجسد



دار توبقال للنشر

كلام الجسد



محمد بنيس

كلام الجسد

دار توبقال للنشر
عمارة معهد التسيير التطبيقي، ساحة محطة القطار
بلفيدر، الدار البيضاء 20300- المغرب
الهاتف / الفاكس: 522.34.23.23 (212) - 522.40.40.38 (212)
الموقع: www.toubkal.ma - البريد الإلكتروني: contact@toubkal.ma

تم نشر هذا الكتاب ضمن سلسلة
ذاكرة الحاضر

الطبعة الأولى 2010

لوحة الغلاف لعمل
الفنان هيمت

الإيداع القانوني رقم : 18 MO 2010
ردمك : 978-9955-511-02-2

اسْتقبالُ الشّطْح

كنتُ، منذ نهاية السبعينيات، وضعتُ الجسدَ في مركز القصيدة. لم يكُن ذلك اعتباطاً ولا نزوة. كتاباتٌ وأعمالٌ دلتني على معْنى الجسَد الواقعي، الحي، في العمل الشعري. وكان ديوان **في اتجاه صوتك العمودي ثم بيان الكتابة** شطحاً وافداً على القصيدة وعلى فكرتها. هكذا أحسستُ الجسدَ وهو ينطقُ بكلماته الأولى. لم تتأخرْ أراءٌ معترضة على الإعلان عن نفسها، بحجة الحقيقة الشعرية، التي تنتصر للفكرة على الكلمات، للمفهوم على الجسد، أو للحقيقة الإيديولوجية، التي تعبّر عن تقدمية مريضة. أنظرُ اليومَ إلى مقاومتي لتلك الآراء المعترضة فأجد المعرفة وحدها كانت تؤيّدني وتحْميني من الندم أو النكران.

لا شيءَ أوقفَ الجسدَ عن الكلام، ولا منعَ الجسدَ من الاستمرار في اكتشَاف واستكشاف كلامه. سنواتٌ كان الجسدُ يبحَثُ عن كلامه، الذي لم يكُنْ رهن إشارتي ولا موضوعاً في حُقٍّ من أحْقاق البلاغة. لا شيءَ من ذلك. كان الجسدُ هو نفسه الذي يدُلني على كلامه، في الكتابة. وأنا أتتبعُ الصوتَ وأهْتدي بالأثر. وإذا كنتُ أرَى أن الكتابة هي التي لازمت ممارستي الشعرية وغيرَ الشعرية فإن النصوصَ، التي تجتمعُ في هذا الكتاب، كانت تنبثق مرة بعد مرة. معَ الحواسّ تنبثق. فليس الجسدُ بالنسبة لي سوى هذه الحواسّ وهذه الأعضاء التي بها يحسُّ الجسدُ نفْسه

وغيرَه في آن.

أتساءل: أليْسَ الجسد هو المادةُ الأولى لحيَاتنا؟ سؤالٌ يفيد أنّ الجسد صنوُ الحياة. فلا حياة بدون جسَد ولا جسدَ بدون حياة. عندما ينـتفي الجسدُ نكون أمامَ الموت. والموت وحده. ولأنّ الجسد حيٌّ فإن كلامَه لا نهائي. كلامُ الذات التي لا تعْرفُ الاستقرار. رحيلُها دائم، رحيلٌ في المجهول. ولذلك فإن الكلامَ، كلامَها، كلامَ الجسد، مهدَّدٌ أبداً، منْ شكٍّ إلى شكّ، ومنْ مضْيقٍ إلى مضْيق، حيث الحبسة تتكلّم، والصمتُ يُعيدنا إلى البدْئيِّ، وجهاً لوجه مع ما لا يُسمّى. وليس لكَ، عند ذاك، سوى أن تستقبلَ الشطحَ الوافدَ منكَ عليك، كلاماً يمجد الهذيان، ينقلُك إلى المُنفلت، المتمرّد، المُخيف.

هكذا يظهرُ الجسَدُ أمامك في المكتُوب، يمتدُّ في مُتعة وشهْوانية لا حدودَ لهما. تخرجُ الكلماتُ على ذاتها. تضيع. فلا شيْءَ غيرُ الليل، فيهَا وفي الكلام. وأنتَ لا تدري أيَّ قوة جَذبتكَ وقادتكَ إلى هُناك. تتبع الكلامَ في جسَدك، تتشظّى، بين ليْل وليْل. ولا علاجَ لكَ منْ كلام هو أنفاسُ الحياة فيكَ. فلا تندمْ، ولا تسْتعجِلْ.

كلامٌ كان ينبثق في غفلة عنّي. ويدي كانت تُلازم تلك الانبثاقات. مرة بعد مرة تكتبُ مذكرات، في شكل نصوص لها وضعُها الشخصيّ. لم أمنعْها ولم أتخلّ عنها. تركتها حرة. فهي كانت تفاجئني بعالم مجهولٍ لا أعرفُ أين كانَ من قبلُ يختفي أوْ كيف كان يهجم في أوقات مباغتة. توتراتٌ في أقصى حَالاتها. ويدي تكتبُ المنفلتَ، المتمرّدَ، المُخيف. كلامٌ ينفجرُ شطحاً بين الأصابع. وأنَا أستقبله. ذلك نفسُه ما يأمرُ به قارئَه، الذي يقبَلُ بجسد قارئ حيٍّ، يستقبلُ بدوره كلامَ الجسد، الشطحَ، فلا يتخلّى أو يتراجَع. سيكُونُ مع المحسُوس، الحيويّ، الرّاقص. وكمَا أنّ كلام الجسد لا نهائيٌّ فإن قراءتَه لا نهائية. لهَا التوليدُ والتأويل. وفي كل مرة تدلُّ على فضاءات مُقبلة منَ المُستقبَل، في المُستقبَل.

بذلك أمرَني كلامُ الجسد، بعد أن استحْوَذَ وملَكَ، في نصّ، ترْكيبٍ، كتابَة.

هناك، في هذا الكلام، ما يلمعُ بغير المُطمئن. وأنتَ تعثرُ على أنفاس تنتعش، تتعرّى. جسد يتكلم. ولكَ نعمةُ أنْ تَكتب.

المحمدية، في 8 نوفمبر 2009.



يَـدُ الشّاعر

أجدني تلقائياً في حديث معَ اليَد، يَدِي. لمْ أنتظر أحداً ليقدّم لِي يدي، في مُناسبة من مُناسبات الحياة الاجتماعية أو الثقافية. هيَ يَدي التي كنتُ عثرتُ عليها، في صبَايَ، وأنا أخطّ بقلَم القصَب على اللّوْح. قلمٌ وصُمَاقٌ. واليدُ الباردة، في صباحات الشتاء، زرقاءُ من شدّة البرد. بصعُوبة تضغطُ الأصابعُ على القلَم وتخطّ كلماتٍ، هي كلماتُ القرآن. كلماتٌ. لم أكن أعرف لاَ معْنَى الآية. ولا معْنَى السّورة. كلماتٌ. ولا تطلُبْ منّي أكثرَ مما أنا كنتُ أجتهدُ في التعرّف عليه. طائفةٌ من حُروف تضيعُ منّي سماتُها. والحروفُ في كلمات، مجردة من المعْنَى.

هي يَدِي. في حديثٍ معَها. ربّما كنتُ قريباً من العالَم وأنَا أتحدّثُ معَ يدي، ربّما كنتُ بعيداً. منْ منّا يُدرك أسرارَ الذّات وأسْرار العالَم؟ منْ منّا يقدرُ على الجزْم بحقيقة ما يَرى وما يسمع؟ أبتعدُ عن تُرّهَات كانتْ صالحةً لعقُولنا الفطْريّة، ذات يوم، فإذَا هيَ ليستْ نحنُ ولاَ هيَ العالَم. أتحدّثُ مع يَدي. شخصيّاً، لا أستغربُ. يدٌ وحديثُ شخص معَ يدِه. ما الذي يزعجُك في الحالَة؟ نعَمْ. يُمكن أن تعودَ منْ جديد إلَى مَنْ يُصدرون الأحكام، الواقفين ورَاءَ البَاب، الحاملين نُعوشاً لكلِّ مَنْ يُحدّثُ يدَهُ. وفي النّهاية أقُولُ: هذَا لا يهمُّني.

صباحٌ في حديث معَ اليد، يدي. أحسُّ أنّني أطيرُ بقوّة مَا أنَا فيه. بدُون جناحَيْن ولاَ خيَال. في داخلِي قوةٌ ترفعُني منْ فوق الكرسيِّ وتسبحُ بي خارجَ الغُرفة والجُدْران. جسَدٌ مشدودٌ إلى هَواء. والهواءُ في لوْنٍ أزرق. سماءٌ. هي النفَسُ. وهي الهذَيان. أنَا منْ أهْل الهذَيان، في لقاءٍ معَ يدِي. ولا أبحثُ عمّن يمكن أن يُعيدني إلى رُشْدِي، كما يقولون. العودةُ بالنسبة لي أختُ الهذَيان. تلكَ هيَ النّشْوَة، التي أصبحتُ أحميهَا منَ الانكشاف. نشوةٌ معَ يد، وهذيانُ حديثٍ معَ اليدِ. عندما يبدأ الصّباح وتحضُر اليَدُ، تكون العينُ قد انخطفَتْ والنفَسُ في جهة أخْرى من الكلاَم. الهذيانُ أجملُ الكلاَم. منْ نفْسٍ إلى صاحِبها. في حديث غيْر مفهوم، منُفصلٍ عن العالَم، عن العذَاب اليوْميِّ، عن الألم الذي لا ينحدّ. وأنَا في حَديثٍ معَ يدي.

تلك اليدُ، التي أنَا في حديثٍ معَها، هيَ اليدُ التي تكتبُ. وهيَ لذلك يدُ الشّاعر. يدٌ تعيش اليومَ، في زمننا، تجربةَ التخلّي عن تاريخها. بهذَا ظهرتْ تلك اليد. يدُ الشّاعر. أيّ شاعر في أيٍّ لغة. يدٌ بها تكتبُ القصيدةُ نفْسَها. هُنا يبدأ السرّ. وهنا كلُّ شيء يُقبل على الحديث. يدُ الشّاعر، في الصّباح. عندما كانَ يأخذُ الورقة ويكتبُ بيتاً، أبياتاً، قصيدة. وتاريخٌ لهذه اليد. منْها نشأت الحضارات الفرعونية، الآشورية، الصينية، الهندية، الفارسية، اليونانية، اللاتينية، العربية. حضارات باذخة وحضاراتٌ في الأمكنة الأخرى من العالم، في أمريكَا اللاّتينية. واليدُ تظهر في حَياة الحضارة البشرية. لكنّ يَد الشاعر كانَت يداً عُلْيا، اليَدَ العُلْيَا.

تاريخُ هذهِ اليد. لكنْ ما علاقةُ هذَا التّاريخ بيدِي؟ لاَ أسألُ، بلْ أُثبت ما ننْسَاهُ، في زمنٍ يتخلّى فيه الشاعرُ عنِ اليَد. بعُنْف يبْترُها، بدون سيْف ولا نطْع ولا سيّاف. الحياة التقنية. والاستهلاك. والإعلام. والطّرقُ الكُبرى للمواصلات. ما يليقُ ببتْرٍ لا أحد ينتبهُ إليه. حتّى الشاعرُ لم يعد يحسّ بألم بتْر يده. بنفسه يضعُ اليدَ رهن إشَارة الآلة، ثمّ يمضي دون أن يلتفتَ إلى ما سيقعُ لها. هُو يتركها هُناك. وهي

منْ بقايا زَمنٍ قديم، زمن المحْبرة، والقلَم، والمْحَاة، والمنشفَة، واتّسَاخ الأصابع، والتعب في السيطرة على الورقة. يترك الشاعرُ اليوم يدَه للآلة، يبترُها بحَسَب ما يُلائم الآلة.

ذلك ما أثْبته، بهدُوء. فأنَا غيرُ متعجّل. أريدُ أن يطُولَ هذا الحديثُ معَ يدي. وهو يتبع شكْلَ الحلَزُون. يدورُ ليَدُور، دُون أن ينتهيَ أبداً. تاريخُ يدٍ، تكتبُ. يدُ الشّاعر، في كل لُغة من اللغات المكتوبة. يدٌ وورقة وقلَم. حتّى تبدأ القصيدةُ. ذلك ما يحْدُث في الصّباح، بالنسبة لي علَى الأقلّ. وأفكّر في الصّين. في الشّاعر الصينيّ القديم، من عهد الطانْغ، الذي لا تنفصل حركةُ الخطّ لديْه عَنْ حركَة اليَد. وصوتُ الفراغ الأسْمَى في نفَس الشّاعر. إنّه لا يتكلّم. يكتبُ بيدٍ، يخطّ بهَا. وهو يتْبَعُ حركةَ كُلٍّ من النّفَس والإيقَاع، جامعاً بيْنَ النظام الكوني وبين المصير البشري في مقطع شعريٍّ، مُوجز. ذلك هو إيجازُ القصيدة الصّينيّة.

يدُ الشّاعِر الصِّينيّ تُماثل جلالَة يدِ الشّاعر الفرْعَوْنيّ، الشاعر الأول في الحضارة البشرية. على ورق البُرديّ الألوانُ والمعادنُ. الذهبُ. لأجْل كتابةٍ، هيَ القصيدةُ. واهبَةُ الخلود. إيزيس، والموكبُ والشمسُ والنّيل. لكلّ هذا كانتِ القصيدةُ إلاَهةً، إلاهةَ الآلهَة. هي التي أنْشأَتْ وصوّرَتْ. هي التي دلّتْ وأخبرَتْ. هي التي أمرَتْ وملَكَتْ. هي النقطةُ وهْيَ اللاّنهايةُ، في قصيدةٍ فرعونية، كتبتها يدُ الشاعر ترديداً لموْكِب لا يتوقّف في طريق الخلُود. معجزةٌ. قصيدةٌ. تخْشَع لها النّفُوس.

وسرُّ هذه اليد أقْوى ممّا أنا فيه. يلْزَم التهيؤُ للأبعد في الظّهُور أمامَك، فيكَ. يدٌ تكتبُ وأنتَ اليومَ تنْسَاهَا، تُلقي بهَا إلى الحاسُوب، تبْترها بنفْسٍ راضية. قطعْتَ معهَا الودّ، الذي كان، والحنينَ الذي كان، والوصلَ والهجْر، ذلك النشيدَ الذي كان يُحرقك، آناءَ ليْل يظلُّ ليْلاً على الدوام. في هذَا الصّبَاح سُكْرُك أجملُ من كلّ سكْر. وبهاؤُك في أصْفَى الحالات. بيْنك وبيْنَ اليَد، تكتبُ ما لاَ تعْلَم، ومَا لاَ تُريد أن تعْلَم. أنتَ في شطْحِك. اليدُ غائبة عنْك، وأنْتَ غائبٌ عنْهَا، ترْحَلان إلَى

مكَانٍ لا أنْتَ تعرفُه ولا هيَ. لكنّك اليوم نَسيتَ، أنسَتْك آلةُ الحاسوب ما كان لك معَ يد لا تشبهُ يداً أخْرَى ولا آلةً. راضياً تسلّمُها للبتْر، في أسْواقٍ عمومية لا أحدَ يلتفتُ فيها إلى مشْهد البتْرِ، لكثرة الأيْدي التي تتنافسُ في البتْر، ولكثرة المُتباهين ببتْر أيدِيهمْ.

وأنا أحدّثُها في الصباح. يَدي التي لا أُفارقُها، بل يدي التي أُصاحبها في صمْتها، وهي قريبةٌ منّي. لهَا القلمُ الذي تفضّلهُ. ولهَا الورقَة. في دفْتَر بمربّعات صغيرة. دائماً لهَا الشكلُ نفْسُه. تلك اليدُ هيَ التي ألازمُها، في حديثٍ عنْ حركَة الأصابع، وعنْ حَوادث تُنعش الكتَابة. بذرةُ جمَال الكتَابة بخطّ اليَد، يد الشّاعر. الحوادثُ. الحادثةُ. بين القلَم واليَد والورَقَة. عندما يبدأ التّشْطيبُ على كَلمَة، كلمات، أبياتٍ. حادثةٌ على طريق القَصيدة نحْوَ القصيدة. وأنْتَ تسترجعُ لذّة التأمّل في كلمَة، في حرفٍ. تشطّب بيَدٍ، قلَم، على كلمَةٍ، كلمات.

هذه الحادثةُ هيَ ما لا يُعوّضُهُ الحاسُوب، أيْ ضرورةُ أن تشطّب بحرية. والتشطيبُ واضحٌ فوْقَ الورقة. تشطيبٌ علَى طريق كانتْ تُغري القصيدةَ كيْ تنْحَرفَ عنْ طريقها السّريّ، المجهُول. يدٌ تشطّب، تواضُعاً أمامَ القصيدة، التي لا تبلُغُها إلا مُجاهدةً. من حادثة إلى حادثة. لا مِنْ بيتٍ إلى بيت. في الطّريق. تَرى اليدَ تشطّب. لا تتوقّفُ عن التّشطيب. وأنتَ في شطحة خَالصة لا تحسّ فيهَا بمَا يتعَارضُ معَ فعْل التّشْطيب على الكلمات، التي لا تنصتُ إلى الصّوت الخفيِّ للقصيدة. هو الآمرُ لهَا، باتّباع طريقِ أنْتَ تجْهَلُها، وهيَ تقودُ القصيدةَ نحْوَها مشطّبة على كلّ كلمةٍ تندسّ بيْن الكلمات، تحريفاً لمسَار طريقِ القصيدة نحْو القَصِيدَة.

تخطّ وتشطّبُ، هذه اليدُ. وأنَا أتحدّثُ معها عنْ تاريخ لي، وتاريخ لهَا في حَياة بشرية. تتقدّم أمامي حضاراتٌ قديمة ومغامرات فرديّةٌ. أتذكّر أبا تمّام، وهو مُلقًى على الأرض باحثاً عن كلمة. دائماً تُغويني حوادث أبِي تمّام، الذي عاش من أجل كتابة قصيدته، فلمّا أكْمَلَها ماتَ قبْلَ بلوغ سنّ الخمْسِين. لمْ يبق لديه مَا يفعلُ

في العالَم. إنّه أتَى منْ أجْل قصيدةٍ وقدْ أكْمَلَها. هو يعْلَم ذلك، فلَمْ يَجمع النّاس، لم يُلق فيهم خُطبة وداع. ما كان حريصاً على كتابته كتَبه ومضَى. ونحنُ، جيلاً بعْد جيل، نفتحُ ديوان أبي تمام ونقْضِي عمراً في قراءته فلا نُكْمل قراءة ما هُو أكْمَلَ كتابته. يدُه كانتْ كتبت القصيدة. وهو كان عاشقاً ليده، التي كانت تشطّبُ على ما يمكن أن يحرّف القصيدةَ عن طريقها. كانَ أبو تمّام شديدَ الصّرامة. وعصْرُه، الذي لم يكُنْ معَهُ على وِفَاق، لم يمنعه من كتابة قصيدته. لأنّ إخْلاصَ أبي تمام ليده كان إخلاصاً للتّشطيب علَى ما يحرّف القصيدةَ عن طريقها.

أتذكّر شُعراءَ، أستحضرهُمْ في جلْسَةٍ واحدة. وأنا سعيدٌ بهذاَ اللّقاء معَ أمْوات يظلون أصْدقاءَ أوْفيَاء. إنّهُم أهْلِي. كلّما أقبلتُ عليْهم فتحُوا الأبْوابَ وتركُوني أنظرُ إلى أيديهم تخطّ القصيدَة، لساعَات. تخطّ وتشطّب. وأنا أُتابع حركةَ التشطيب قائلاً إنها سرُّ الكتابة. لا سرَّ تُوازيه. في التّشْطيب اللاّنهائي الذي لا يتنازلُ عنْ حقّه في الكتابة، حاضراً فيهَا، متمرّداً علَى سواها. والتشطيبُ غيرُ نادِم على ما كانَ لهُ مع السابقين عليَّ، ولا مَعِي أنَا. لأنه يسْكنُ اليَد. ومنْها يُطل عليَّ، ينزل من الإيقاع، مكانِ المجهُول. أراهُ ينزل فقط، ويسيرُ جنْب يدي. أقتربُ منْهُ ومنها. وهو يحْتَرم طريقَه، لا يلتفتُ إلَى منْ لا يعنيه أمرهُم.

وتلْكَ اليدُ هي التي تبْقَى. يدٌ في زمَن يهْجُر اليَد. وفي زمن يسلّم الشاعرُ يدَه للبتْر افتتاناً بآلة الحاسُوب، متوهّماً أنّه من أهْل الحداثة. والآلةُ إلاَهتُها. يدَان نظيفتَان. وهو يوماً بعد يوم ينْسَى يداً كانتْ لهُ، وينْسَى أنّها التي كانت دلّته على الكتابة. هو اليوم منهمكٌ في تصفيف حُروف، متشابهةِ الحجْم. فيمَا شعراءُ آخرون في العالم يحافظُون على اليَد، يخطّطُون قصائدَ، في كتاب، بخطِّ اليد، الّتي هيَ ما يبْقَى لهُمْ. يدٌ لا تُباع، رغْمَ إغْراء التّقنيات ووفْرة المَال. هي نفسُها التي لا تُشبهُهَا يدٌ ولا تعوّضُها. واليدُ المبتورةُ في الورقَةِ تصرخُ فيكَ أنتَ الذي نسيتَها مبتورَة، تصرخُ منْ صبَاح لصبَاح.



الكتَابةُ بـ «شيْء منْ حَتّى»

.1

«ماتَ سيبويْه وفي نفسه شيءٌ من حتّى». هذه القولة، التي تعلمتُها وقرأتُها، كما تعلّمها غيري وقرأهَا، كانت مرتبطةً بدرس نحوي محصُور، يمكن أنْ نَنساه أحياناً، دون أن يُحدثَ ذلك ارتباكاً في تركيب جملة أو النطق بهَا. هي مسألة النُّحاة كمَا نقول. يختلفُون في معاني الحروف ولا يبْلغون منْتهاهَا. نقُول ذلكَ وننصرفُ إلى ما كنّا منشغلين به، في الوقُوف على ما يشكّل فائضَ دلالة القولة. مسألةٌ نحويةٌ نتركها وديعةً للنُّحاة، نتركها لدرْسٍ بعيد عنّا، إنْ قليلاً أو كثيراً. مجردُ مسْألة نحْوية.

وفي المعْلُوم اصطدَامٌ لا نهائيٌّ بالعوائق، اصطدامٌ بالنقص المتكرّر وبالأخطَاء. على هذا النمط ابتدأتُ أكتشفُ العوالم المحجوبة خلف الجُمَل، التي توهمتُ أنها بسيطةٌ لكي أقتنعَ، بفضل إدْغَارْ مُورَانْ، بأنّ البسيطَ لا وجود لهُ. المركّبُ وحْدَه هوَ الموجُود. وشيئاً فشيئاً كانت قولة «مات سيبويْه وفي نفسه شيءٌ من حتّى» تستحوذ عليّ وتغريني. تضحكُ حيناً وتلوب غريبةً أحياناً. هي هذه القولةُ التي لا تتجاوزُ عدداً ضئيلاً من الكلمات، ومع ذلك تتسع لتمتدّ إلى بحْر لا يُفضي إلى

غير البحر. قولة واحدة، أليْسَ كذلك؟ هيَ التي أعودُ من الرحلة فيها إلى مدًى أوسعَ، موحشٍ، مليءٍ بالخبايا وبالأسرار. فلماذا تبتعدُ هذه القولةُ كلما قلتُ منْها اقتربتُ؟ مرّةً تبدو لي المعاني سريعةَ اللمح، مرة تتباطأ. ثُم يعاودني السؤالُ بقدر ما تعاودني الحيرة.

بهَذه القوْلة شرعَ المستحيلُ في المعرفة يتضح أمامي. ذلك العَالِمُ النحوي، النازلُ من المناطق الفارسية كيْ يتعلم العربيةَ ويعلّمها للناس، يشبه الأندلسي أو المغربي. إنهما ينْتميان إلى المناطق القصوَى من العالم الإسلامي. معاً يتعلّمان العربية ويَكْتسبانها. يتعلمان إتْقان لغة ليست في الأصل لغتَهما ومعاً يبْحثان عن صرامة فهْم الدقائق، التي بدونها لا يكتسب أحدٌ معرفَةَ أو ملكَة اللغة، كما يقول ابن خلدون.

وأنا الآخر ورثتُ عربيةً مكتَسبةً، ثمّ عشقْتُها. مع ذلك فأَنا مُتّهمٌ دائماً بعدم مَعْرفتي للعربية. هذه الوضعية لا تظْفر بها إلا اللغاتُ الباذخةُ في العالم. ربما كان ذلك سبباً في إنصاتي المتزايد لهذا الأعْجَميِّ الذي مات متواضعاً أمام جبروت لغة يتَمثّل لديه في اسْتحالة تحديد وضبط المعَاني الشّاملة لكَلمة وَاحدة منها، مُفْردة، نَافرة. ولكنْ، هل كانتْ «حتَّى» هيَ الدرسُ الافتتاحيّ للمعرفة باللغة العربية؟ وهل هي سرّ أسْرارها؟ وهل مَنْ قبضَ علَى جميع معانيها استَوت العربيةُ بين يديه طيّعةً، أليفة؟

لي الحقّ في طرْح الأسئلة تلْوَ الأسئلة. هذا مَا تعلّمتُه منَ المعرفة. أبدأ بالسُّؤال قبْلَ أن أبادر إلى إنْشَاء الأجوبة. إنه الذّي تعلمتُ وأنا أهفُو إلَى المزيد من المعرفة. تتواصل الأسئلةُ في صُحبة سيبويه، الفارسي، وأنا أحسّ بأنه مُنعزلٌ في إحدى مناطق الأطلس الكبير، بين تارُودَانتْ ووَرْزازَات. لتلك المنطقة الأمازيغيّة علماؤُهَا اللغويّون الأشدّاء، ولربّـما كان سيبَويْه ضيفاً من ضيُوفهمْ، في سَكينة الجبال يُقيم، متأملاً في المعرفة الناقصَة، وفي كل مرة يَسْتشير أصدقاءَهُ من عُلَماء

اللغة المغاربة ليتأكد من أن الاقتناع بالنقصان أساسُ كلّ معْرفة.

.2

أحبُّ النّحْو عندما أقرأُ بيتاً لامْرئ القيس أو للمُتنبّي. ولكنّي لا أجد في نفسي رغبةً في مُتابعة درْس من دروس النحو. و«شيء منْ حَتّى» تَشْغلُني، ترعبني. في الانتقال من النّحو إلى الكتابة تتبدّل علاقتي بالقوْلة. خرسٌ يُصيبني ويُصيب القولة. إنها تبدو لي الآن مليئةً بالعجائب. طبقاتٌ يَتلألأ بعضُها فوق بعض. هذه القولةُ، التي كانت مجرد خبر عَنْ علاقة سيبويه بـ «حتّى»، أصبحت حالة تُداهمني في الكتَابة، في الانْتقال من حقل إلى حقل. ولكنْ مَا الّذي يحدُث الآن في هذا الانتقال وغيره ؟ ما الكَارثة التي تستهدفُ دلالَة القوْلة؟ وأيُّ انكسار يسبق فَراشتَها؟

في النّحو تكوُن «حتّى» بُؤرةَ المتاهات. وفي الكتابة تشرع كلمةُ «شيء» في البروز إلى جانب «حتّى». «شيءٌ منْ حتّى». الكلمة هنا مفردة ونكرة في آن. «حتّى» المليئةُ بالمعاني، بالأشياء، تذوبُ ليبقَى «شيء» بمفرده، قويَّ السطوع. نجمة تلمع ولا نَدْري منْ أينَ أتَتْ ولاَ إلى أيْنَ تسير. متاهةٌ هي كلمةُ «شيء». شيء منْ حتّى في الكتابة. حَقاً إن سيبَويْه لم يعْجز أمامَ فائض المعنى باعْتماد النّحْو، بل باعْتماد الخطَاب الذّي بهِ تتوه الكلماتُ في ارتباطاتها بالمعاني، وتضيع في السديم. جملة واحدةٌ يمكن أن تُصبحَ مداراً منفلتاً من قيد المعاني، وتنهضَ في خلاء التّحْديد والضّبط. آنذاك يبتهج النحاةُ وهم يُعيدون كلّ معنًى إلى منطلقه، كما هُوَ متداوَلٌ ومعروف. فلاَ انْفلاتَ معهُمْ ولا زَوغان.

وأنا أعيش حالة مُناقضة، تماماً. وظيفتي هيَ غوايةُ الكلمات إلى متاهات، إلى عتمات بدونها لا يُشعُّ الكلاَم. «رمْيةُ نرْد»، كما كتبَ ملارْمي. هُوَ ذا مشهد الصّراع البدئي، بيْنَ النحويِّ الذي يُخضع المعاني إلى قَواعده، وبين الشاعر الذي يُحرّر الكلمات من قواعدها المسبقة. صراعُ سُلْطَة. وفي جميع الحالات، هناك

تاريخٌ خفيٌّ لهذه الصراعات. تَعْرفه النصوصُ وحدها وتُخفيه أو تَفْضحُه في عصور سيادة اللغة المركزية، المنضبطة، الخاضعة للمعنى الأوّلي.

هَلْ هناك ما هُو أقسى من مُزاولة الصراع من يوْم ليوم؟ ومنْ نصٍّ لنَصّ؟ وبعبارة أخرى: كيف يمكن للشاعر أنْ يتخلّصَ من انْضباطه المتدَاوَل، منْ رَزَانة المطمئنّين إلى المعْلُوم، ومن وقار الرّاسمين لحدُود ما يكُونَ ومَا لاَ يكُون؟ ذلك هُو سُؤَال الكتَابة. رمْيَةُ نرْدٍ في وحدة ليليَّة، لا يقاسمُكَ أحدٌ برْدَها أوْ هجيجَها. أنت هناكَ في العتمة تكتبُ بحثاً عن الرقْص في الكتَابة. والسؤالُ سؤالُكَ أنت. لا تبحثْ عن غيْرك في ليْلتكَ، ولا تكتبْ بغَيْر رقصتكَ. تلك هيَ وصيةُ الكتابة وأنتَ تقتربُ منها قَلِقاً، مشطِّباً، وفي أكثَر منْ مرة تنتفضُ ضدّ نفسكَ : «كيْفَ استحوذَ على يدي هذا الذي أكتب؟».

تلْك القسوةُ هيَ حياتُك ومَماتُك، معاً. بالقَسوةِ تقيسُ الكُليّ فيكَ. وكلّما تراخَت القسوةُ كان ذلك علامةً على انْصياعك وجُبنك. إنّها خيانةٌ للصراع الذي هو آيَتُك الكُبرى. في الصراع ينشأ الهدْمُ والبناءُ معاً. وهُمَا معاً شيءٌ واحد. ذلك مَآلُكَ الذي سيبقى مَآلاً من غير تَرُّدد أوْ تراجع. وفي كلّ ذلك تكْمن حكمةُ الكتابة لا حكمتُكَ أنت، الذي تتوهّم أنك البادئُ بوضْع أسرار كتَابتك. لاَ، إنّها هيَ، الكتابةُ التي تَقُودها ذاتُك فتقودُكَ، بدوْرها، إلى المجَاهل التي تـمْتَحنُكَ بها في النزول ضيفاً على فضَائها. تبدأ وتعيد. تُخطئ وتُعيد. تظْمأُ وتعيد. من يوم ليوم، ومن قصيدة لقصيدة.

.3

يعرّفُ المعْجَم «الشيء» بأنه معْلُوم، ولا يُضيف إلى التعريف كلمة أخرى. معلومٌ فقط. ولكن سيبويه يدلّنا على أن الشيْءَ مجهولٌ. نحن نجْهل الشيءَ الذي مات وهو لا يُدركه من معاني «حتى». شيءٌ طائرٌ في ريَاح المستحيل، يُحوّم فوق

نفس مَريضَة بالمجهول. الجسد يُحْتضَر ولا يثْبتُ أمامَهُ غيرُ هذا المجهول الذي يطير ويدق دقّات مُتسارعةً تقاومُ اللحظات الأخيرةَ من الحياة، دقات ترنّ في الجسَد المحتضَر. والمستحيلُ شرسٌ وعَنيد. مجْهولٌ. إنه تعريفٌ يتعارض معَ الحجْم، الضّابط للحق في المعاني.

يَسْمَحُ اللّيْثُ، اللّغويُّ، لنفسه بالحكْم فيَ حضْرة جفَاف المعرفة النّحوية فيبوح بأن «الشيءَ» هُو الماء. غريبٌ أنتَ يا سيّدنا الليث، تحْلُم في حضرة منْ يمنعون الحلم على اللغة، ولا تأبه بمن يُعارضك! «الشيْءُ» هوالماء يترقرق بين أحضان الكلمات، بين شقوقها وثنيّاتهَا. يترقرقُ منَ النفوس الرّاقصَة. وفي كَامل الجسد ينتشرُ، ماءً عذْباً، سريعَ النّبع. ينفلتُ منْ بين الأصابع لتظلّ الرقصةُ متهيّئةً دائماً، ودورانيّة دائماً.

وأنا هُنا أنْتشي قليلاً. عندما أخْتلِي بالكتابة أضحكُ منْ شدّةِ التعارض بين تعريف وتفسير. وفي الكتابة تتوالَى اللّمحَات مُحْرقة، كتُومَة، متمادية في الغيّ. لم أكُنْ منْ جُلاّس أسَاتذة القرويين لأصَاب بجفَاف المعرفة النّحويّة. لقد صاحبت بالأحرى مَنْ علّمُوني عشْقَ اللغة العربية، أقصد شُعراءَ وكتاباً لا يَزالُون يدهشُونني كلما اقتربت منهم أكثر. من هؤلاء تعلمتُ كيف أن الشيءَ هو ما يصْمُد في كل كتابة. ما أعرفه ولا أقدر على مقاومة إغرائه. أفْتضُّه، حسب وصية أبي تمام، لأفتضه ثانية ثم ثالثة. ماء ينعش جسدين، يندلق ضاحكاً وراقصاً، في افتتاح الكتابة والكتابة.

ثم كان عليَّ أن أعرف أن «الشيء» شغَلَ فرُويْد أيضاً. شغل اللاّحقين، مُحلّلين نفسيين وفلاسفة. «شيءٌ» لنَا نحْنُ معاً في تقاطع المعرفة والمجهول. وفي الكتابة يتبدّى «الشيءُ» صلباً وقاسياً. وَاحدٌ ينْقسِمُ إلى اثنين. ملاسَةٌ تتبيّنها يدُك وهي تخط الكلمات راقصةً على جسَد يُنافس جسَد المرأة. «شيءٌ» ويدان تلعبَان، تضحكان، ترقصان. بينهما السطوعُ يتجدّد لكيْ يتجدّد باستمرار. شرارةٌ تنمو

بطيئةً وكاشفةً في الخلاء، بيْنَ ذاتك وذاتك في عتَمة الكتابة.

لم يكن ذلك مفهوماً لديّ أوّلَ الأمر. تلكَ القواعدُ الضّابطةُ، التي اعتقلَتْ بدَايَاتي، لم تسْمَحْ لي باسْتيعاب ضرورة «الشّيْء» في الكتَابة. كنتُ كلّما اصطدمتُ به ارتعدتْ يداي وبكيْتُ عجْزي، أنا العاجزُ الذي لا يقْوَى على مواجهة «الشيء»، على مواجهَة المجْهُول النّابض في جهة خفيّة عنّي. وكنت حينَها أرمي بالقصيدة بعيداً، أخْشَى أن تُحرقَني، تحرقَ ما انْضبطَ في دخيلتي قائلاً: لا تكتبْ إلاّ واضحاً وفياً لقواعد مَنْ علّموك. وأنت هناكَ مطيعٌ لهُمْ، تسيرُ أمامهُمْ حانيَ الرأس، حافيَ القدميْن، مُسَلماً، مُسْتسلماً، تتبّرأ منْ ذَاتك بحثاً عن الرّضَى الذي به ستُصبح حاملاً لقباً مهيباً، مَشْمولاً ببَركة منْ علّموك أن الامتثالَ سيّدُ السلوك.

تبّاً لمن علمني ما يتعارض مع ذاتي. هكَذا أقولُ، اليومَ. لا شَماتَةً ولا استعلاء. أقولُه فقط لأستطيع، مرةً أخرى، تحمّل نصيب الحرية في كتابتي، من غير تعوُّد على شن حروب أنْأى عنْهَا. أقصدُ حريةَ أن أكتبَ، في الخلاء الحر، وحْشياً وصديقاً للمجهول.

.4

ليكُنْ، إذن. بضعُ خطوات وها أنا وجْهاً لوجْه مع القولة بتَمامها. «شيءٌ منْ حتّى». بهذه القولة أكتبُ ولي كاملُ المحْنَة. أجَلْ، كاملُ المحنة. هذا «الشيء»، الماءُ الذي هو جوْفُ الكتابة، لم يعُد بمفرده مُحَدِّداً لانتخاب الكتابة وطناً ولا ضوْءَ سوَاه. «حتَّى»، العصيةُ على التّعريف، تفعلُ بدوْرها ما تَشاءُ في ذَاتي. وأنا أرى إليْك أيّها المتشكّل، الجسورُ، الذي يُطاردني باستمرار.

عبثاً أن أسأل «لماذا أكتب؟». أنا أجهل ذلك، وعليَّ أن أكفّ عن طرح أسئلة لا تتعلق بي، بقدر ما هيَ تريد أن تهدّدني بضرورة تبرير فعل الكتابة. أنا لا أبرّر شيئاً. أكتبُ فقط. كلّ جواب مغاير لم يكُنْ جوابي، في القيْظ والزّمْهرير، عندما

كنت ألْعنهُما معاً في صيْف وشتاء فاس. ولا يختلفُ الطقسُ الآن كثيراً عمّا كان من قبل. هناك دلالة عثرتُ عليها في طقْس الفضَاء الثقافي المغربي أو العربي، مع فُروقات لا أنكرها.

إذا كان «الشيءُ» هو ما استبدَّ بي سَابقاً، في الأيام التي نَنْعتها بالخَوالي (ما أبْهجَ رنينَك أيّها الفراغُ السّاطع في هذه الصّفَة!)، فإن الراهن يجعل من «حتّى» نهاية المدار. عليَّ أن أكونَ مُستعداً لمجهولك يا «حتَّى»، مستعداً للاحتضَار القاسيِّ الذي ألمحُه وأنا أكتبُ هذه الورقَة. مجهُول «حتّى» يُعاود السطوعَ، خفيفاً، أملسَ، دفّاقاً، مُتعاظماً، مُنتصراً. مجهولُك أقوى منْ نفسي التي تخْشَى وحَلَ الطّاعة مهْمَا كانَ مصدرُه: طاعة القاعدة، طاعة التقنية، طاعة الامتياز، طاعة الموت.

حقاً لقد أصبحَتْ «حتّى» جَمُوحَة في الأيام التي تتوالى ونحنُ نعيشُ انْدحَارَاتنا التي لا تورّثُنا غيرَ الانْدحارات. جهلٌ يُصِيبنا ولا يتوقف عند حدّ. عنف يَخْتطفنا. تبعيةٌ تسْتبسلُ في شحْذ شعاراتها. قوّةٌ تنهض في داخلنا لتصْرَعنا. و«حتّى» يزدادُ لمعانُها.

سأكتب حتى ماذا؟ قديماً كنا نعتقد أننا سنكتُب حتّى ننتصرَ في حرْب اللغة أو الحضارة أو السيادة الطبقيّة. كنا نكتبُ و«حتّى» واضحةُ المعنى. نحن الذين نُعيّن لها حُدودَها، نجلس بين خرائطَ نبدّلُها بمشيئَتنا ثم نتقدم فرحين بمعلُومنا الجَميل. مسالكُ أزهار لمعْلُومنا القادم. نرى إلَى ماضينا القريب وهو يبتعدُ، لا نكترثُ بالضّاغط الذي يذكّرنا على الدّوام بأنه نهايتُنا.

.5

لكن سيبَويْه في دَمِي يطوف الآن، يطوف بفانُوس منْكَسر الزجاج والذُّبالَةُ منطفئة. زيت يفوحُ برائحة الرماد. وهو يطوف. لا يكلّمني ولا يردّ على التحية. أنا الآخرُ لا أعرفُ معَاني «حتّى» في الكتَابة التي ورّطني فيها جسَدي ذات يوم،

ولا خلاصَ لي منْها. كلّمْني أيها الشيخُ، كلمْنِي: هل متاهُنا واحدٌ أمْ أنَك تطوفُ لتضحكَ بطريقتك الشخصيّة؟ كَلّمْني.

«شيءٌ» و«حتّى» يتقاطعان ويطوفَان. رمادٌ كله يتّسع في فضاء لا تكادُ تتعرف عليه عيْنَاي. في كل يوْم أعثر علَى نَقيض المعْلُوم يدبّ في عظامي. زمهريرٌ وقيظٌ يتوافدان ويتنازعان جسدي. أنا القادمُ من منطقة أجهلُها لأمضي فيها. والكتابة بـ«شيْءٍ» من «حتى» هيَ العذاب كله. أقْضي صَباحات وأنا مُتجهّداً أنظر إلى بعيد «حتّى»، أحاول إقناع نفسي بأن العالَم قد يُخفي ما لاَ أدركه. ولكنّ العينين يقظتَان، تُبصران عالماً تنحلّ خيوطُ نسيجه من أجل ما لا أدري. هل كلّ ما حلُمْنا كانَ هبَاء؟ هل نحن ذاهبون إلى مَخابئنا كَثعالب جريحة ولا أحد يدلّها على الشّفَاء؟ وأسأل نفسي: هل هذا كله ضروري لـمَصيرنا؟

يبدو أن كلّ أصناف هذه الأسئلة مرحلةٌ لا بدّ منها لأبقى وحيداً في حُريتي مع لغة أنا عاشقٌ لهَا. وعليَّ أنْ أستوعبَ جيّداً أن مجهول «حتّى» ملازم لكل كتابة بـ«شيْء» منها تسترسلُ الكتابةُ، وهي تواصل حالة الإضْرَاب.

سُحُب

.1

- من تؤثر أيها الرجل الغامض، أباك أو أمك أو أختك أو أخاك؟
- ليس لي أب ولا أم ولا أخت ولا أخ.
- أصدقاءك؟
- إنكَ تستعمل لفظاً لا يزال معناه مستغلقاً عليّ حتّى اليوم.
- وطنكَ؟
- لستُ أعرف أينَ يوجَد؟
- الجمَال؟
- إنني كنتُ سأحبه عن طيب خاطر لو أنّه كان إلاهياً وخالصاً.
- الذهب؟
- إنني أبغضُه
- إيه، ماذا تحبُّ إذنْ أيهّا الغَريب؟
- أحبُّ السحُبَ... التي تمرّ هناكَ، السحبَ الرائعة.

.2

قصيدة بُودلير هذه لم تكن هي التي حبّبتْ إليّ السّحبَ. فالسحُب كانت في عَيْني وفي أعضائي وفي دمي سابقة على قصيدة بُودلير. كانت في سَماء الخَريف تلعب على حيطان البيت المرتفعة إلَى عُلوّ الهذيان. في تلك المنطقة السرية من الرؤية كانت تُظللني وتلْعبُ لعبة لا هيَ بالكلمات ولا هي باللاّكلمات. لعبةٌ من علوّ شاهق. ثم السحُب تسقُط باتجاه شاقُوليٍّ كما يسقط قُطن من يدين سماويتين. عندئذ كان يحدث شيءٌ أمْكنني أن أعبّر عنه بصيغة «خَفَّ الخَريف»، بعد أنْ تعلمتُ قليلاً من القراءة والكتابة.

وما زالتُ حتى الآن أتساءل عن سرّ غموض هذه الصيغة. «خفَّ الخريفْ». هل ثمة ما ينعشني فيها خارجَ ورود الخاء والفاء في الكلمتين معاً، في الأولى يأتيان متّحديْن، مع إدْغام حرف الفاء، وفي الثانية منفصلين عن بعضهما بعْضاً؟ أمْ أن السرّ لا يتجاوز الخريف الخفيف أو الخريف المقبل بسرعة؟ تلك حيرة تلازمني وتلازمُ هذه الصيغةَ البسيطةَ التي وردَتْ على خاطري. عفْواً نطقتُ بها من بين أطرافِ صمت أو لربّما في استغراق دام عهداً طويلاً. وأنا لا أنتبهُ إلى ذلك، في صمْت، ربما. وهو أفضل بالتأكيد. ألا يحْسُن بي أن أختارَ الآنَ، وبعْد مُضيّ عمر على النطق بالصيغة، شيئاً أخترعُه من تلقاء المتعة المتجددة بتعبير «خَفّ الخَريف»؟ على أنني لا أعلم حَتْماً إن كانت، في هذه العبارة، أصداءُ منَ القصائد التي كنتُ آنذاك مُعجباً بها.

سحُبٌ في السماء، ثم على حيطان البيت معلقةٌ في منتصف الهواء، بين أشعة ملساء من شمس في الخريف. تلك صورةُ ما كنتُ أشْتَهيه في طفولة لم أكن أتوفَّر فيها على لُعَب، كما هو حال أطفالنا اليوم. سحُبٌ هي لُعَبي. وهذا يكفي. منذ ذلك العهد والسحبُ صديقتي والخريفُ صديقي أيضاً، من دُون تعجّب أوتثمين زائد. السّحبُ والخريف. تلك هي صيغة «خفّ الخَريف». في جسَدي هذه السحبُ التي

لا تعرف دلالة رمزيةً كما تعلمناه في بعض الدروس، أو كما فضّل لها شعراء رومانسيّون أو رمزيون أن تكون. إنها قطَعٌ من نديف ملفوف، حيّ، مُتراكم، يتكوّن من هبُوب هواء أوْ ريح. يلتئمُ في أشكال لا نهائية ويتبدد متشّكلاً من جديد.

.3

ذلك عشْقي. سحبٌ كانت تنشأ في الخريف، كما لو كانت فواكهَ تنشأ وتنضجُ في صباحات ربيعية، فتسمح لبَخّ الورْد، قطرات المطر الخفيفة، أن تُنعش القلبَ. في الحالتين معاً، تكون أنفاسي في أقصى نشْوَتها. طبقةٌ تعلو طبقةً. طبقةٌ تولَد من طبقة. يأْتي الهبوبُ على أهْدَاب السّحُب متثاقلاً، متباطئاً، متناوماً، متحيّراً، منجذباً. وفي السّماء سحُبٌ تحْضُر في الخريف. يمكنني إذن أن أفْرحَ بالموسيقى وبالعطر والألوان. ولا دخَلَ لبُودلير أيضاً في ذلك. إنّها حالتي التي رافقتني كلما كنتُ أقبل على السّحُب وكلما خفّ الخَريف.

أحسبُ السحُبَ عالماً من خيال. محضُ خيال، كنت أقول وأنا أمنّي النفس بأن يكون الأمرُ كذلك، لأنني لم أستطع لحظة أن أميّز بين السماء والأرض. لكني كنتُ متيقّناً من أنّ لمْسَ السّحُب مستحيل. هي هناك فوق، أو أماماً. مع ذلك كنتُ متيقناً من أنها هبَةُ الخيال. كيف لا أصدّق أوْهَامي؟ أعتقد أن تلك الأوهام جزءٌ من الحقيقة. أوهامٌ بها يمكن أن أستمرّ في حب الحياة. وأنا أكاد لا أكذّب نفسي، حتى الآن. رغْمَ أن الماديَّ في السُّحب صار أوضحَ. لم تكن السحُب بعيدة عني في السماء، مثلاً، ولكنها كانت مخْلُوقاً من مخلوقاتي. في الخريف أولاً، ثم في بعض صباحات الربيع. وعندما كنتُ أحاول أن أنظرَ إلى السحُب بعين واقعيّة، كانت السحبُ تتحول إلى رماد.

في السّحُب أكتشف عيْني. أكتشف قصبَة الصّدْر. وأكتشف سراديبَ فيها يتجوّلُ دمي. وفي كل مرة يحدث لي ذلك أبتهجُ. فرحٌ بعيدٌ بالعُثور على جسدي،

عبر الفرح بالسحب. كركراتٌ أتابع أصْدَاءها من قفَص الصّدر إلى أمشاط القدمين. وجهي يظلّ مضيئاً بما كانت تتركه السحُب على أنفاسي. وفي الهُنيْهة الأخيرة يتضاعَفُ الفرحُ بما أوتيتُ من فَرحٍ بالسحُب التي حافظتُ على صداقتها، منذ الطفولة.

.4

عندما أعود إلى قراءة قصيدة بُودلير، أتأمّل علاقتي بالسُّحُب وأقترب أكثر من هذا الحسّ الجمالي، العفوي، الذي أعطتْهُ الحداثة الشعرية منزلةَ الاختيار. لكنّني، في الوقت ذاته، أحاول من جديد أن أتأمل علاقة الشعراء العرب القدماء بالسّحاب، وبالرذاذ والمطر، عبر تاريخ عريض من تجربة شعرية حضَر فيها السَّحاب في أحوال متعددة، حيث رسّخت لنا تقاليد شعرية عريقة هذه العلاقةَ المتفردة بالسّحاب. أقصد التقليدَ الجاهليَّ الذي أعْطى السحاب مرتبةَ النّعيم، بالنسبة لأعز الميتين وهُمْ يُوارون قبورهم في صحراء لا مطرَ فيها ولا ماء. وقد استمرّ الشعراء القدماء أوفياءَ لهذه الصورة حتى ولَوْ كانَ الدّفْنُ يتمّ في أرض لا تتوقف أمطارُها عن الهطول طيلة السنة.

التقليد الثاني هو العباسي. مدرسةُ البديع نسمّيها. هناكَ ارتباطٌ لدى هذه المدرسة بين تمجيد الطبيعة والسحاب. إنها تنطلق من منظور ساكنة أرض لم تعُدْ صحراوية، يحْضُر السحاب فيها كعنصر له سحْره في النبات وفي النفوس معاً. وهو ما رسّخ تقليداً تتكامل فيه مظاهرُ طبيعة ذاتِ ألوان وعطورٍ مع حياة مدنية لها أناقتُها.

أما التقليد الثالث فهو المتحدر من التجربة الشعرية الأندلسية. وربما كانت الموشحات هي أرفع تعبير عنه. إن الموشحات، كإنتاج أندلسي، يكاد السحاب فيها يكتسب خصائص قلما نعثر عليها، في الفترة الأندلسية ذاتها، خارج الأندلس.

لكن السحاب تحوَّلَ لاحقاً إلى موضوعة شعرية تتواصل عبر قرون وأمكنة متباعدة، كنموذج شعري. قد يكون أوْ لاَ يكون منْ صميم الطبيعة المحليّة لهذا الشاعر أو ذاك.

.5

أختصرُ هذا الموروثَ الشعري في خُطاطات قد لا تُقنعنا كثيراً لما تحتاجه الرؤية التفصيلية. مع ذلك فإنني هنا لا أهدفُ إلى طرح نظرية خطيرة. مجرد تأمّل في السحب التي كانت تلازمني على أرضية البيت، في حي «العدوة». معها اليومَ ألعبُ قليلاً، وقليلاً أرفعُها إلى مناطق الضوء في كلمات، ومن كلمات إلى عَتمات تشملها بالرحمة. كلماتٌ هي نفسها سحُبٌ لي ولك، بيني وبينك. نحن معا نغْشَاها، وفيها نتُوه، لعل شكوكاً تبادر إلى الكشف عن المناطق المُعْتمة، التي لا نعرف عنها شيئاً، بين الأشياء والكلمات. وفي ذلك كله عجَبٌ أليفٌ من علاقة لا يبررها منطق. علاقةٌ تنصرف إليها الحواسُّ في زمن ليس هو زمن الشعر الجاهلي ولا العباسي ولا الأندلسي. بل هو بالضبط هذا الزمنُ الحديثُ الذي يجْعلُنا نُعيد النظرَ كل مرة في المكتسب بعيداً عن الوثوقية المرهقة.

قليلٌ من سحُب. وفي كل لحظة أتساءل: هل هناك تبادلُ تأثير بين تلك العلاقة الطفولية، العفوية، الخاصة جداً في الخريف، وبين ما قرأتُه عن السحب قديماً وحديثاً؟ تساؤلٌ يضمر وعْيَه النظري، ما دمنا لا نستطيع مباشرة أن نتساءل كشعراء وكتّاب خارج هذا الوعي، مهما تبرّأنا من تأثير هذا أو ذاك على علاقتنا بالعالم الخارجي، ومهما حاولنا أن نُفلت من الربط القسري بين أعماقنا الغامضة وبين ما نكتبه عن الأشياء في غفلة عنّا، أو بوعي شديد الإدراك. أتساءل، إذن، لأعرف إلى أيّ مدًى يمكن لبعض ما عاشه الجسدُ واختبرَهُ أن يكون مفْتوحَ الأفق في مستقبل لا يطمئن إلَى الحنين.

.6

من قبل، عندما قرأتُ للمرة الأولى قصيدةَ بُودلير، أحسستُ كيف أن نقد الواقعيّين للسحاب الرومانسي، في السياق العربي، مخطئ. لا لأنّه انتقدَ السّحاب، داعياً كل الشعراء إلى اعتبار الأرض المصدرَ الوحيدَ للشعر، بل لأنّه لم يُدركْ أن الأرض بدورها قطعةٌ من سحاب. ولم يدرك، في الوقت ذاته، أن الرؤية الواقعية تُلغي عنصراً واقعياً، ماديّاً، هو السحاب. ثُمّ فرحْنا بالمطر، في الشعر العربي المعاصر. لدى السياب، أكثر من غيره. كان علينا أن ننتظر قليلاً، قبل أن نُعيد من جديد اكتشافَ القيمة الحديثة لما انتقده الواقعيون، وهُمْ يواجهون سَطوة الرومانسيين. انتقادٌ لم يكن على الدوام يصْدُر عن وعْي بالمقوّمات الحديثة للقصيدة، بقدر ما كان يكتسي غالباً بُعْدَ الإلغاء. وتلك انتقاداتٌ لم نعُدْ نكترثُ بها كثيراً، في الوقت الراهن.

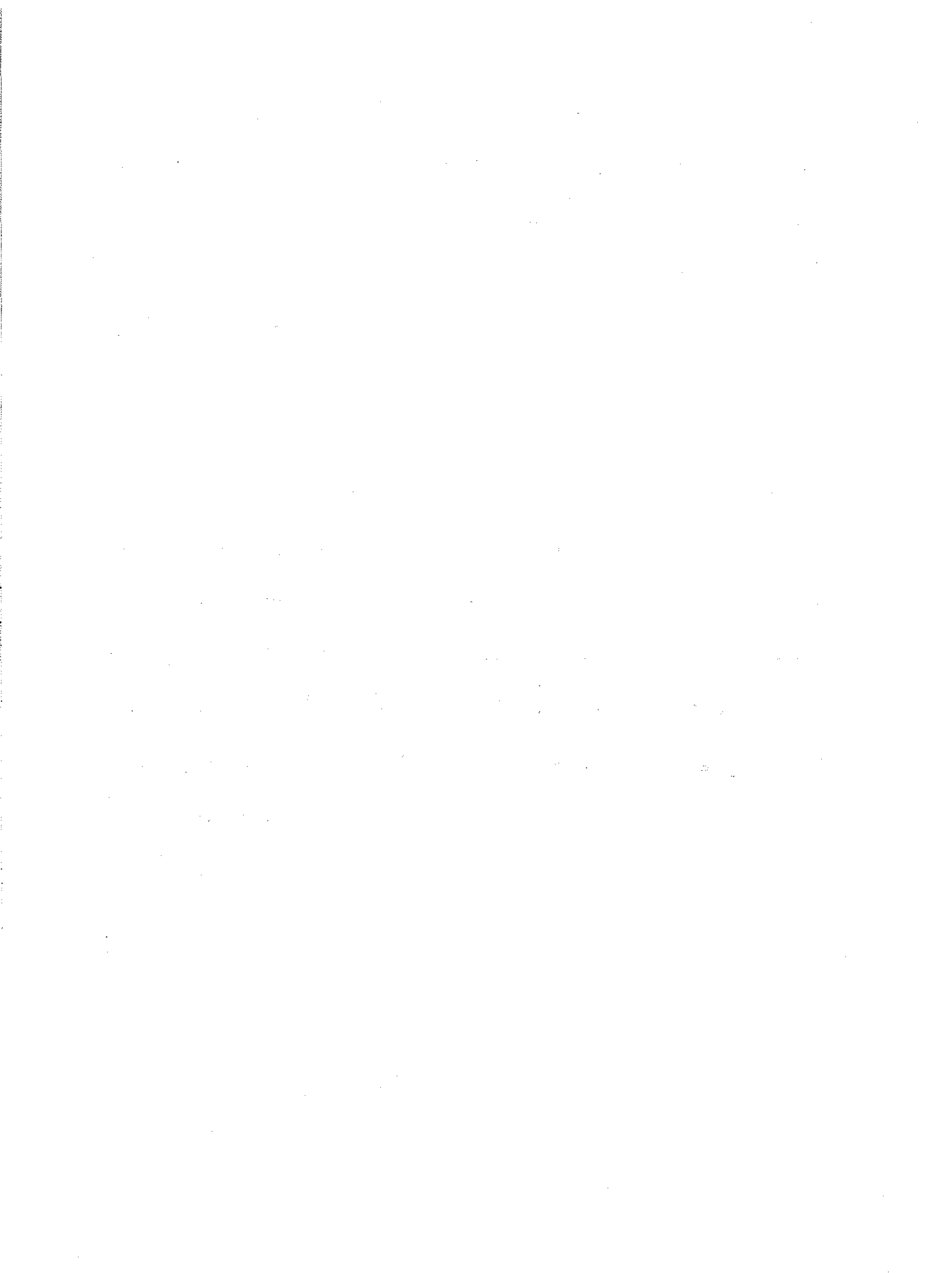
إن المسألة هنا لا تعني أن علينا العودةَ إلى الرومانسية. لا، أبداً. إنها تشير فقط إلى أنّ تغييرَ المعْجَم الشعري ليس كافياً في حد ذاته، فيما هو لا يعني الأهم في الرؤية، التي تهدف القصيدةُ الحديثة إلى بنائها. قضايا الكتابة لا تنفَصِلُ عن قضايا وجودية أساساً. ومن ثم فإن كلّ اختزال للشعر في معْجَم أو في صُوَر أوحتى في موضوعات (أغراض)، يظل بعيداً عن أن يستوعب تاريخَ الشعر العربي من ناحية، ومنظُورَ الحديثين إلى الشعر، من ناحية ثانية.

أحاول أن أتأمّل، وأنا واقع تحت تأثير عودة سحُب الخريف. إنني بالأحرى أحاول أن أتفرد بنفسي. في هامش من سحب أدافع عنه، من أجل أن أدرك بعضاً من مَاديّة القصيدة وهي تفلتُ مني، كلما أقدمت على ضبط خارج القصيدة لميولات أصبحت تلح عليّ في الموقف الجمالي، الذي هو مزيجٌ من الممارسة النصية والشذرات النظرية الطائفة حولها في الخريف. سحُبٌ صافية. هل هذا ممكن؟ تَميلُ نفسي إلى هذا التناقض. إنّه أساسُ جمالية تقود القصيدة وتبتعد بها

عن الضجيج الذي لا ينفع في تطوير التأمل في راهن القصيدة وراهن مَا لهَا أن تصبح عليه، مقبلةً على زمن أوْ هي في زمن تبدّل كلية. ونحن نفطن بذلك دون أن نمنَح التأمل بُعْداً معرفياً. بلى، إنه الخضوع إلى قيَم تفْتقد الجرأةَ على الذهاب إلى مكان آخر، لا يُقلّد، مهما تبدلت الأسماء. وهي في ذلك تستسهل المسألة الشعرية في زمننا، الذي أصبح الشعرُ فيه مخلوعاً عن عرشه.

.7

خفّ الخَريف. سحُبٌ تعود من دورتها السنوية مثلما تعود من الطفولة وهُمَا في نفس واحدة. في ذاك الواحد. الذي ينقسم إلى أكثر من اثنين. ولا نعرف تأكيداً أين يتوقف العددُ الذي ينقسم إليه الواحد. في الصباح، والسحب. لونٌ رمادي هو الصفاء. غيماتٌ في فضاء، والفضاء في أحوال ذات تستكين لتشهد في طبقاتها السرية ما تتركه الفراشةُ من ألوان في العينين. وللأحوال وقتٌ لا نُدركه إلا مجاهدةً في الوحدة والصمت. تلك هي السحب معي، وشكراً لبودلير، في صباح مِنْ سُحبٍ ومِنْ خَريف.



طريقُ الوَشْوَشَات

هَلْ هناك أعزُّ من الوشْوشَات وأنت تبحثُ عن قليل من جسَدك في الكتابة؟ أسألُ نفسي في مدينة كبيرة، لم أتعوّدْ على ضَجيجها، منذ ذلكَ العهد البعيد الذي كانَ يأخذني إلى مدينة، مثل الرباط أو الدارالبيضاء. كنتُ أحسُّ بالوشوشات بعيدةً عن جلبة الحياة اليومية. ولي شيءٌ ينْكَسر كلما افتقدتُ لحظةَ الوشوشات. شيءٌ لا أعرفه. ربما كان النّجْوَى، ربما كان المناجَاة، ربما كان العبثَ بما لا يقاوَم. وفي هذا كله تظلّ الوشوشاتُ عزيزةً عليَّ، إلى الحد الذي أصبحُ فيه مُطالَباً من جسدي بالهروب إلى حيث اللحظة تستقيم شفّافةً، بيْني وبينَ نفسي. لحظةٌ من البلّور تنزل في الأعضاء. ثمّ لا تُغادرني. هيَ في المابيْن. لحظةٌ من ألق موشُوم على أولَى الكلمات التي تفيض مختلطةً، لا تكاد تُفْهَم. وشْوَشَات.

إذنْ، أسأل نفسي، في لمح البصَر: عمَّ يُمكنني أن أتحدثَ إلَى مَنْ يتوجه نحوي بالكلام وأنا لا أطيق حديثاً؟ يقتلُ الضجيج الكلمات ويقتل الرّغبة. هذه العَوالمُ تتدافعُ كالبشَر، في زحْمة تراكضين، كأنهم إلى الجَحيم يودُّون الوصول في أسرع وقْت مُمكن. لاَ جمالَ لحياتهمْ إلاّ في هَذه الزّحمة المفضِيَة إلى جَحيم، ومن جحيم

إلى عذاباتٍ. وأنْت ترغبُ في مكان لَهُ الهدوءُ، البعْدُ، السُّحبُ المرفُوعة إلى أعْلَى العيْن. لا تبصرُ غيرَ ما أنت مهيأٌ لتبصرَهُ، لمْحاً يفيض من جهات أنتَ تدركُها ولا تَطْمعُ في سَواها. تذكّرْ ذلكَ كلّما اقتربْتَ من جدار به تصطدمُ، وبه تعيد طرحَ الأسئلة البدْئية، التي قد لا يكونُ لها معنًى في حياة منْ هُمْ إلى الجحيم يُبادرون.

وأتعجّب منْ يدٍ لا تَرى حَيْرتي بادية على ما تبقّى من الكلمات. لسانٌ يعجّل بما يودُّ التخلصَ منه. واجبٌ، أو موعدٌ، أو مهمّة. كأنّ بيني وبين كل ما أفعل مَجرّاتٍ من العذاب، حتى لا أعثرُ، في النهاية، لا على غيري ولا على نفْسِي. هي مجرد لعبة. معَ ذلك فهي لعبة لا تُحرك في الدواخل فسحةَ الفرح الضروري. لعبةُ أن تُفْلت من عذاب تخْشى أن يدوم، متوهّماً أنّه واجبٌ ما، أخلاقيٌّ، وطنيٌّ، ثقافيٌّ. جميعُ المعاني تدل على ارتياب واضح في كل ذلك. ما لا أعبِّر عنه هو أقْصَى أشكال التعبير عن اللحظة المفقودة من لحظات الكلام. ولا أطالبُ أحداً بذلك، لأني مهْمَا فعلتُ سأكون مُناقضاً لمنطق أن أكون في مدينة، وفي ضجيج.

لو شئتُ أن أخلق لحظة لما ترددتُ في الصمت، مخْتفياً عن المحيطين بي، وأنا ألتمسُ العفْو عن عدَم فهم ما يُقَال، على مرأى الجميع. إن هناك على الدوام ما يؤدِّي بي إلى هذه الحالة. ولا أجدُ تفسيراً مقنعاً، فأقول لنفسي: لا تَتْعبي في بحثٍ كهذا. لكِ وحْدكِ أنْ تعيشي الحالة، وللكتابة أن تتكفّل بما تبقّى. في الكتابة أفتحُ الفضاءات وأغْلقُها. فيها أسافرُ وأقيم. ولا أكلّف غيري عناءَ أن يحسَّ أو يرى. ذلك شأنُ جسدٍ لا يزال يُقاوم نقيضَه في الحياة وفي الضجيج. تلك السنواتُ، التي مرّت، عهودٌ بكاملها تنطق في الدواخل، متمرّدةً عليَّ. وأنا أنصتُ وأطيع.

إنه تمام البذْخ. بذخ أنْ اصمُتَ، قاذفاً برَأْسي إلى جهات لا أعرف عنْها شيئاً. وشوشاتٌ. لو كلّمْتُ العابرين لما اكترثُوا. ولا أطلب من أحد أن ينطق بما أشتهيه، أوْ أن ذلك، إنْ طلبتُ بخَجَل وبصوت مُضطرب، لا يعْنِي أنني مُلِحٌّ في الأمر. مجرّدُ كلمات تعرّفُها القواعدُ بكونها طلباً وما هي كذلك. إنّها لهْوٌ بما أريد. في بضع ثوان

فيها أهربُ من المجادلة في أي الطرق أحَبُّ إليك. فلا أستعجلُ جواباً. أهمس في الطرق: أنتِ موَحَّدةٌ في منع الوشوشات عنّي، ولا طريقَ غيرُ الوشْوشَات، من الجهة المتروكةِ للرُّحَّل، المبتعدين عن الضجيج.

في الكتابة ما يُقذَفُ، على غرار الأضواء، في الصدور. جُملةٌ كان عليّ أنْ أقضيَ عُمراً بكامله من أجل بلوغها ولا ضيْر في ذلك. لأنني ربما استحوذتُ على ذاتٍ صعُبَ عليَّ ترويضها، في سبع سنوات. وقد لازمتُها الليالي والأيام، متيقّظاً، عند عتبتها جالساً، لا أغادر الصمْت. على ظهري وشومٌ وفي يدي ورقات. خشْيةَ أنْ تُفلت مني، في نداء ليس ندائي، في غرور يفْتِك بأصابعي، في وجَاهة أبعثُرها بالهرير حتّى لا يقدر الواهمُون على الإمساك بي. يقولُ لي صديقي «اتّئدْ قليلاً، لا تبتعدْ عن المدينة التي ستمنحكَ الجلاَل». وأنا لا طمَعَ لي في شيء، لدرجَة أنّني أحَاول كل مرة أن أُفْسِد اللعبةَ مُسْتحِمّاً في ماء الهذيان، عازفاً عن أيّ امْتيازٍ. في القُصور وأروقتها، في السَّاحات وخلْفَ الساحات. عُزوفي لا يُشير إلَى موقفٍ أخْلاقي، نُسمّيه التكبُّر.

في كل مرة، إذنْ، أواجه هذه المدينة لأني مُدركٌ أنها الجحيمُ الذي منْهُ هربتُ في بداية عُمر. فكيف لي أن أتعلق بهَا وأنا في أرْذَله؟ شيءٌ من البلاهة يغلّفُ الكلمات. ليكُنْ! وما الفائدة في إخفاء البلاَهة أو إعلانها؟ ما يهمُّني هو ألا أخْلِطَ بين ما عليَّ أنْ أفعلَ وما أريدُ أن أكونَ في الصمت، على حافّة وشوشات هي لي. أقولُ، ولا أكْذب علَى نفْسي، عندما يتعاظَمُ الأمرُ وتكُون النجاةُ مستحيلةً يتغيّر لسَاني، يتحوّل عن مجْراه الطبيعيّ. يختار حالةَ الإضراب. أنْ أُضربَ عن الكلام، هذا من حقّي، ولو أنني شرّعْتُه لنفسي بدُون استئْذَان. فيه أغامرُ بالصّعْب، الوعْر، الشديد النفُور. جملةٌ من المظاهر تكفي ليبدأ الصّمْت راقصاً على جسدي. وفي الطرف المقابل مَا لا يقدرُ علَى بلُوغ إدراك حالتي.

هناك مَنْ يودّ التعرُّف على الوجه الظّاهِر منكَ وفيكَ، وهو ينْفُر منْ سَواه.

لكنّي كلَّ مرة أحاول أن أفهَم ما المقصود من الوجْه الظاهر. هل المقصود ذلك الوجْهُ الذي يفْعَلُ كلّ ما يستطيعُ من أجل إرضاء الآخرين، عندما يكون الأمر يفرض اللّباقة الكَاملة؟ أم المقصود هُو التخلّي عن الخفيّ عني في أغْوار أحْتار في كيفية تحديد جُغرافيتها؟ ولعلّه أخْطَأ مَنْ توهّم أنني إليْهِ أسْعَى، رغبةً في تحقيق امتيازٍ لديْه. خطأٌ يورّثُني عدَاواتٍ لَستُ مسؤولاً عنها، ويورّثُني آلاماً لا أتخلّص منها. وفي الدخيلة ذلك الصراعُ الدائمُ، الذي لا يفارقني، بين الوجه الظاهر وبين الخفي. هُما معاً يتصارعان في لحظاتِ الشّدّة. وأنا، هناك، مقذوفٌ في الذي أراهُ ولا أراه.

والوشوشاتُ. صدِيقَاتي. كلماتٌ خفيضةُ الصوت ولهَا اختلاط. هي قُوّتي وهْيَ هلاَكي. أستأذنكَ أيها الجالسُ، قريباً من كلماتي، في عدم الإفْصاح عمَّا أريد لأني لا أعرفُه. ربما كنتُ بحاجة إلى مناجاة هي من صَميم ما تبقّى لي في عالَم الضجيج. ربما كنتُ لا أدركُ كيف أقرأُ كتّابَ الحياة الثّقافية العربية، المنغلقَة عليَّ رُموزُه فلا أجد متّسعاً آخر للتوحُّد به. ربما كنتُ عاجزاً عن إدراك أسْرار ما لا يُفصح عنه الناسُ من حوْلي. يكتفون بإشارات ليسَتْ من صنْف الإشارات التي عوّدتْني عليها الكلمات القادِمة من أقْسَى الآلام، وفي كلّ مرّة أسقُط منْ عَلْيائي غاضباً. ولاشيْءَ يستوجبُ ذلك.

أتحدّث إلى نفْسِي. وشوشاتٌ مع نفسي. ولي صديقٌ يؤكّد أن ما أكتُب هذَيانٌ قريبٌ من العبث. أو هو اعترافاتٌ دائمة بما لا يتحقّق أبداً في الحياة العامة فيستغلقُ أمرُها على غيْري. أُلْغِزُ أكثرَ مما ينبغي. أُعمِّي الكلمات. وأَمْضِي غير عابئ بمن يودُّ أن يقرأ. كأنني أستديمُ تنْكيلاً وأمارسُ تعذيباً في حق منْ يفتَحُ الصفحَة ويشْرَعُ في القراءة. يُضيف الصديقُ: أحاول أن أقتربَ منك فإذا بك منفلتٌ، هاربٌ. فإلى أين تود أن تذهب؟ أين ترغب في بناء سقْفِ الكلمات؟ وهل لديك محطةُ وقُوف يمكنني فيها أن ألتقيَ بكَ من غيْر عنَاء؟

وأنا أتحدث عن الوشوشات. كلامٌ مختلط. حتى لا يكادُ يُفهم. تلك دلالةُ الكلمة في العربية، بمَعْنَى أنّني أتحدّثُ عن مشتَركٍ بين أفراد من كل مكان في الحيَاة البشرية حيثُ لا يتركُ لنا الضجيجُ فرصةَ أن نجلس إلى بعضنا بعضاً في هدوء ما تخْلُقه اللحظةُ ذاتُها. أعْني أن نتكلّم ونصمُتَ بحرية في آن. كلمةٌ للمحبّة. كلمةٌ للصداقة. كلمةٌ للسُّحُب التي تُغْوينَا. ألوانٌ تعلو وتنخَفِضُ في حركةِ طيَرانِ الأعضاء. ولها منكَ ومني شجاعةُ أن نكونَ خارج ما يطوّقُنا، بين أوضاع وعاداتٍ لا تسمِّي الحياةَ فينا بل تقْتُلُها، تحوّلُنا إلى هشيمٍ، غارقين في أوْحالِ حياةٍ تنعدم فيها قيمُ الإنسانية الحرة.

أنتَ، إذن. وبيْننا ما نودُّ أن يكون متوالياً كالنّهار والليل. تلك الوشْوَشاتُ الخفيةُ عن الأبصار، وقد ارتدَّ إليك بصرُكَ فلاَ أنت رأيتَ ولا غيرَكَ رأيْتَ. إنما هي لحظةٌ فيها يشتدُّ ذوبانُ كلماتك عليْكَ. فتكونُ في الصداقة تنطق بما تمليه الكلماتُ، عارفاً أن الطرق إلى النفوس لا تتناقضُ وطريقَ الوشْوشات. قليلٌ من كَلام يتدفّقُ هارباً من المواضعات التي تمنعُ عنك الحديثَ في شؤون النّفْس. هنيهاتٌ هي أبْقَى الشّؤون بعْدَ فوات ما نعتقد أنه حقيقةُ ما نسعى إليه. ولكنّنا، رغماً عنا، نُغادر أعْمَاقَنا، نحوِّلُها إلى حُطام يوميٍّ لا يزدادُ إلا حُطاماً. تلك حالةٌ لا نُواجهها بالصّرامة المطلوبة. وشْوَشَاتٌ وحْدها على حدِّ الخطواتِ الضائعةِ، في مسيرة يوم، أيّام.

وشوشاتٌ أدافعُ عنْها كلّما أدْركني مكانٌ يمتلئ بالضجيج، وكلما أحسستُ أنّ دواخلي متمرّدةٌ عليَّ. لا أتركُ الضجيجَ يَهْرِس العظام. حولي أبني حاجزاً من الضّوْء والبعدِ الخفيِّ عن الظاهر. هُناك أسافر وأقيمُ، خارجاً من محيط يغْمُرني بضدِّي. كلماتٌ تتكفل بذلك الطقس العزيز على النفس، لا تستشِيرُني في الطريقة التي بها تنكَتِبُ علَى صفْحَة. ولي رغبةٌ في عدم منْعِهَا من الانكشاف بما هيَ عليه، متيقّناً من صَداقاتٍ بعيدة بدوْرها تشتاق للوشْوَشَات، نجاةً من ضَجيج ومن زِحَام.

بهذا المعنى يَبطُل أن نقول عنْها إنها مجرّدةٌ عما نودُّ التعبير عنه، أوْ هي مقطوعة عن الآخرين. لسنا بحاجة لاعْتقال حَديثنا في أفكار وفي وقائع. للْحَنَان مكانُه في دواخلنا، للشّهْقَة اللاّمِعَة، لليَد التي تنبسط كي تَرى الكون ينشأ من جديد، بين فَراشَتَيْن، كأنه قوسُ قُزح يفيض بالمعاني، الحبّ، الصّداقة، الحريّة. وهي جميعها معانٍ لإنْسيتنا الجديدة التي نبحثُ بلا كلَلٍ عنْهَا، مهْمَا اشتدَّ العصْفُ بنَا، لأننا، هناك، في الضجيج، لا نتهيّأ لما يجعلُنا فرحين مجدّداً بأعماقنا الغامضة، بهذا القصيِّ، العصيِّ على الوصْفِ والضّبطِ والخضُوع والاستسلام.

وَلي فيك أيتُها الوشوشاتُ ما لاَ أفرّطُ فيه. قطرةٌ من ضوء بها تتهيّأُ أنفاسي لمتاهاتها. هناك لاَ أحدَ يقدر على منْعِي من حرية أن أكونَ حاضراً في ذاتي، صاعداً نازلاً فيها، هارباً إليها من مواضعات هي ما يحجُب عنِّي الكلمات الحرّة، في لحظة مناجاة تنفتحُ فيها النفْسُ على النّفس، ولا أنْبَلَ من ذلك. هناك تلْمَعُ الكلمات بما يُقاوم الفنَاء، جمرةً تعلو على الرماد، وفي الحالات مجتمعةً تبتدئُ الشرايين في دفْق الدم، حارّاً على مقرُبَةٍ من كلماتك، في الخفي الذي يجهله المطالبون بالظّاهر، كقيمةٍ لك أن تُلازمَك في حركاتك التي أنت مُطالَبٌ بإخضاعها لمعيار الحضور بيْنَهُم. وهُمْ لا يدركون أنك، هناك، فقط، من أجل شيْءٍ مخالِف لكُلِّ ما يعتقدُون ويتوقعون. فلا تبرّرْ شيئاً ولا تكْترِثْ. هي الوشوشاتُ التي تُكلّمُكَ الآن، في كلماتك، بعيداً عنْ الضجيج.

مُوسِيقَى

.1

يبدو أن الوقتَ لليأس الكَبير. ما يحيطُ بك ويسيّجُك كلُّه لهذا اليأس. كتلةٌ من رصَاص تهْوي على الصدر عنيفةً وشرسةً. وأنا لا أسألها عن السبب. هي هكذا في الصدر تسقط من جهة ما، مجهولة، متحررة من أي نزعَةٍ رومانسية. تلك السّوْداويةُ المشؤومةُ لا تعني لي شيئاً. فقط كتلةٌ تهْوي، والصدر يستقبلُ سقُوطَها، ريشاً أو غماماً. بعكس ما توحي به السقطةُ ورجّةُ الاصطدام على أرضية الصدر الذي ينفتح عن طيب خاطر كأنه لا يُبالي. ربما كان تعوّد عليها حتّى قبل أن تَسقُط. ربما كان الغمام أجملَ صُورها. وفي الريش بعضٌ من اللامبالاة. حركةٌ في الصدر عنيفةٌ ثم خفيفةٌ، فيها الوزن يتلاشى من شدة الاصطدام أو اللامبالاة.

في الاصطدام ذاته أحسّ بحركة مناقضة. شذَراتٌ من الموسيقى متشظّية ترافق السقوط، وفي النّفَس دبيبُ الحيرة يلْمَع. أيتها النفْسُ ارْحَلي بي إلى حيث أنت وحدك تُدركين. ولا أطلبُ وضوحاً. شذراتُ الموسيقى في وقتٍ لليأس الكبير. ما الذي حدث لهذا الصّدْر؟ أوَلَيْسَ هناك سرٌّ بين الثنايا؟ ليكُنْ. لا يستوجب الأمرُ أسئلة معنِّفة. هي الشذرات موسيقى لم أكن أتوقعها، فإذا هي هناك. تلتئم

شيئاً فشيئاً. لحظةٌ من رنين ومن نغمات العُود والناي والكمنجة والبندير والرباب والهَجْهُوج. كلها اختلطت عليَّ، في لحظة صمت. ليلة تنتعش في صفاء. والوقت لا يوحي بذلك. ستائر تحجبُ عنّي المنظر الخارجي، وفي الانحْجَاب يعْذُب الصمت.

بين اليأس والموسيقى تناقضٌ. فالموسيقى صِنْوُ الفرَح الدّاخلّي السرِّيّ، الذي لا يبلغُه تشويشٌ على الحواس. إن لي من التناقضات ما يكْفي. أفكارٌ مشوَّشَة تكاد تعْصف بي. هناك الألوانُ الرائقة، الألوانُ المنقوعةُ في ماء بارد. وهي كلها تمتزجُ بأفكار لا أكاد أميّز فيها بينَ ما يجبُ ومَا لا يجب. ضوءٌ في أسفل الألوان، وأنا أنظرُ إليه. أنظر وألْهُو بأصابعي. لي دنْدنَةٌ لا تُفارقني. والاصطدامُ، هناك. لا أدركُ مِنْ أمري ما يشجّع على نقَاء التّفكير. يأسٌ في الرأس، وحركةُ آلات موسيقيّة في الأعضاء. هل هذا ما نعنيه بالأفكار المشوّشَة؟ أسْأل وكأنني لا أسْأل. هي دندنةٌ أخرى، وصَباح عاصفٌ، ولؤلؤةٌ تفاجئ الجسد ترنُّماً بالموسيقى، التي تَستولي عليّ في ليْلة ماكرة.

.2

يُلازمني التأمل وأنا غيرُ مسؤول عن ذلك. جسَدي يفعل بي ما يشَاء. وأقول معَ ابن عربيّ «لا أعْرف ما يُفْعَلُ بي». كتابةً، ترنّماً، ضحكاً. حتّى الألوان لا أعرف ما تفعلُ بي. هيَ الموسيقى التي تأخذُ في النشوء، مثل سطح الأرض الخارج للتّو من بَاطن المحيط الأطلسي. أبصرُها تنشأ ممتدّةً في أفق فسيح تعْجز عيْني عن قياس مَداه. فيه اختلاطُ الألوان وهي تتقطّر لمعةً فلمعةً، حيث السبيلُ إليْهَا لا يهْدَأ من شدة الفَوران. لغةٌ للْمَابَيْن. هذا البرزخُ النّاشئ بدوْره في الكلمَات. جملةٌ طائشةٌ في هواء له شكلُ مكعَّب. وفي الأشكال كلّها يتّضحُ الصباحُ. والنّومُ. والموسيقى. سأعيدُ على نفسي مقاطعَ كنتُ حفظتها ذاتَ يوم وأنا أترنّم بلحن موسيقي

عيساويّ. كان المُنْشدُونَ يرْتَدُون خرقَهُمْ وعلى رؤوسهم عمائمُ خضراء، كأن رؤوسهم قبابٌ معلقة في سَماء ضريح. والأزرقُ أحبُّ إلى نفسي. هو السماء والبحر في آن. هو الحجَرُ الكريم. هو الصّدور عن الفرحة بما لا تُدركه عين. ولي منْ هذا الأزرق أهلٌ وأحبابٌ أسميهم به كما لوْ كنتُ أكتبُ قصيدةً هي أجملُ ما يمكن ليَدي أن تظْفَر به على ورقة، مصقولة ببياض اللّوعة، في صباح سعيد بالكلمات وحدها. وأعلم أنني لا أنطق عن الهوَى، عندما أمجِّدُ الأزرق، وفيه أدعو أصدقائي إلى حَفْل الكلمات.

.3

تلك حالةُ الموسيقى التي تفاجئني. نقراتٌ علَى الأوتار تبدأُ متقطّعة، بطيئة ومتناغمة. سلسبيلٌ من النغمات ينشأ مُتقدماً بين أوراق وكُتب عوَّدتْني أنْ أعتنيَ بها. أرتّبها وأتصَفّحُهَا، تَحيةً لأصدقائي الذين لا يفارقُون مودّتي. وحين أعثُر على الجُملة الأولى للكتابة أكونُ هناك، في الجهَة الزرقاء التي لا يبْقَى بعدُ فيها حِجَابٌ، بيْنَ نفسي وبيني. في كل ذلك عجَبٌ من الموسيقى، التي تأخذُ في النشوء. وقتٌ لليأس الكَبير. ألهُو بأنفاس متمَردة عليّ. وفي الدخيلة لحظةٌ لا تُقاوم. إنّني أومن بالمستحيل لأنه ليْسَ كلمةً منزوعةً عن واقعيتها، أيْ عَنْ ماديتها. اللونُ الأزرقُ عنْدما يتفجّر على الورقة، والورقةُ في صدْر، لا تستطيعُ أن تقاوم نفسَك. فالموسيقى شديدةُ البَأس. فيها هذه القوّةُ المجهولة التي لم يكْتشف أحَدٌ سرّهَا حتّى الآن.

جسَدٌ يتنفّس وقتاً لليأس الكبير من كلّ ما يرى ويَعيش. لأَنه اللغة الوحيدة الواضحةُ هذه الأيام. ونحْنُ نتحدّث عن الإبدالات الكوْنية السريعة الحدُوث، أو، لنكن ملموسين أكثر، عن الإبدالات في حياتنا اليومية، التي لا تفارقنا مهْمَا تصنّعْنا مقاومةً وقلنا إنّنا نُتابع مسَار الشعلة التي اتّقدتْ من قبْلُ فينا. اتّقَدتْ عندما كنا نفْرَحُ بالأحْلام التي كان الجميعُ يتقاسم عُنفوانَها. ثم اليْومَ لا نعثُر على جَمْرة

لها العُنفوان ذاته. جُملٌ متقطّعة نَتبادلُها، فيما بيننا. نهربُ من زمَن كُنّا تناسينا التعبيرَ عنه عندما الأرضُ كانَتْ تنْشأ والسطحُ يمتدّ بعيداً في الأفق الحرّ، الذي لا يحُدُّه سوى الفراغ، وسوى الأزرق المتوّج في الدخيلة.

.4

على هذَا النّحو أعْرفُ فعْلَ الموسيقى في الجسَد، جسَدي، وأنا أفْسحُ للتناقضات في المكان. جسَدي هُو المكان المفضّلُ لهذا اللّعب المتردّد عليَّ، في وقت لليأس الكبير. أهْفُو إلى ما لستُ أعرفُ، مذكّراً نفسي أن الإنسان لانهائيٌّ رغماً عن الأدبيات المقرفة التي تحجّم الإنسان وتحدّد له كيف يكون اجتماعيّاً أوسياسيّاً أو أخلاقيّاً. ولي أفكارٌ مشوّشَة عنْ كل هذَا، بعد عُمر أصابني وأصبتُه. بيني وبينه كانَ السّجال دائراً عن هَذه التعريفات المختزلة للإنسان، في مجتمع لا يكف عن تفْخيم التّشبث بالقيم المثْلَى. وهي جميعُها قابلةٌ للنّكران بحجة واحدة هي لانهائية الإنسان مقابل نهائية كل هذه القيم، التي تكبّل ما نستطيعُ به أن نُدافع عن حياة واحدة نعيشُها.

للموسيقى فعْلُ ما لاَ أعْرف. جملةٌ موسيقية في البداية. والعيساويون يرددون حزْبَهُم على مسامعي في ليلة متقدة الشموع. على رؤوسهم عِمَاماتهم الخضراء. حينها يُقْرعُ الطبلُ وينبسطُ الأمرُ : قُمْ أيّها الجالسُ في محُدودية ما وضَعُوا واهْجُمْ على اللاّنهائي فيك. امرأةٌ تسبيك، لها الجمالُ المرعبُ، كما يقول شاعرُنا ريلْكَه. أضواء الشّموع ليسَتْ كلها للإضَاءة أو لحضُور النّور. بلْ هيَ للاحْتراق والذّوبَان والفنَاء. لحظةٌ منْ سَديم تنخُر قدميك وفي السّاقين تحسّ الدبيبَ يتفرّع إلى حَركات. هل أنتَ تدقّ على باب أمْ علَى صدر؟ ومَن أنتَ أيها الذي هُناك، خلْفَ الحجَاب تسأل ولا تغترُّ بأيّ جواب؟ فلا أنتَ سألْتَ ولا أنتَ أجبت. هي إيقاعاتٌ كان العُود يُنشئها، ثم القيثارة الأندلسية، في تلك الأمسية على حافّة البيّازين بغرناطة.

.5

إيقاعاتٌ متواليةٌ مَشَوّشَةٌ بدورها كما الأفكار. ولي كلُّ التّناقضات التي تُعرّضُ للنُّكْران نظريات الصفاء. صفَاء العرْق، صفاء اللّغة، صفَاء الرّؤية، صفَاء الأفكار، حتى تصلَ صفَاء التاريخ والجغرافيا. وأنت تضحكُ منْ نظريات الصّفَاء العابثة بنَا. تُخضعنا لأن نكونَ كما هيَ صوّرتْنَا وعيّنَتْ حدُودَنا. تقلّصُ وجُودنا إلى مساحات مقطوعة الأوصال. وليس لنا سوى أن نُطيع كلَّ مرة ما يرغمنا على الرضوخ إلى النهائي، الذي خصّصُوه لنا، على غرار قطْعان الماشية التي يجبرونها على التّلاؤم معَ المسَاحة المحدودة للحظائر، زيادةً في التّقْييد منَ الانفلات. وهو أمرٌ يبعث على الغثَيان.

هكذا عشقتُ المُوسيقَى. وبسرِّها اهتديتُ في قراءة الرُّموز التي لا تَزْداد إلا لُبْساً. قراءتي لم تكن تقصد الإفصاح بقدر ما كانت باستمرار تبحثُ عن متعة تخصُّني، في اللحظات الأشد قسوة. كما لوْ كان بيني وبين الموسيقى عَقْدُ المحبّة. هو الذي يقود خُطاي وصُولاً إلى اللّمعة، صائحةً من بعيد، ألواناً متراثية على بُعد. لي فيها رقْصةُ الشّهْوة وأنَا أصطدِمُ بالصّدر على بلاط. لاشيْءَ يهدأ. موجٌ منَ الانفعالات يغشاني. وأعيدُ على السّمْع ما تراه العَيْن في جُمل قصيرة، عابثة، مندفعة. لعل القدميْن، لعلّ اليديْن. وفي كل مرة لا أعودُ منكِ أيتها الغامضةُ، الموسيقَى.

.6

أُسِرُّ إلى نفسي. هو العصفُ يُسْلِمُك إلَى ما هو محجوبٌ عنك. وأنت به سعيدٌ. السعادةُ في وقت لليأس الكبير. أيُّ متْعةٍ لهذِه المُوسيقى، وأنا أكرر على بصري صوراً لا تنضبطُ لما يتحقّقُ في الواقع! تلك مُتْعتي. أنْ ألْقيَ بالعين في عيْنِ المُحال. قيثارةٌ غرناطيّة تنزل مياهُها من أعالي الجبل والثلج. وفي الأزقّة الصاعدة،

إلى ساحة «فاطمة» أنادي على كَرْمة أضْفى عليها القرميد ألوانَ الجير، والنّيلة، ثم رائحةَ البنفْسَج. أيُّ مَكْر تحتفظ به المُوسيقى لهذَا الصّباح، ولهذا الوقت الذي يجْتَاحُني على حين غرة! تُذكّرني الموسيقَى أن اليأسَ ليس قيمةً سلبيةً دائماً، فيما هو لا يدلّ بالضرورة على أن الحياة انصرمَتْ من دُون معْنًى وأنّ ما لنا مجردُ دمْع سَيظلُّ دمْعاً.

أبداً. أنفرُ من قوْل كهذا، ومن تأويل لا طاقَة لي بعبوديته. وقتٌ لليأس الكبير. في السريرة يُعرّش على مَرْأى العين مما أراه، في حياتنا المتقادمة العهد. نحنُ قادمون من أحْلاَم. وقدُومُنا بعيدٌ، أيضاً. كانت له الألوانُ الطافحةُ من الغناء. تلك هي الموسيقى التي تهْجُم عليَّ حركةً متناسقةً لقيثارة أوْ كمَنْجَة. تصْعَدُها الروحُ وهي تصعد الجبل، تتسلّقُه بلهْفة المسْرعين إلى الهواء الخالص. القمّة في حدّ ذاتها لا تُفيد، بل الصعود في الهَواء تخلّصاً من ثِقَلِ ما حلمنا به، وانتهينا منَ الحُلْم به عشقاً ليقظة بها تستعيد الأعضاءُ حيويّتها، في الإنصات والرّؤية.

.7

أنصتُ إلى الموسيقَى، وأنا لا أفهمُها. كذلك كانَ شأنُ غُوته مع الشمس والقمر والنجوم. تمر فوق رأسه فيتَعرّفُ فيها على نفْسه ويعتبر حركَتها منتظمةً ورائعةً. أنصت إلى الموسيقى وأنا أقفزُ من صَخْرة بُودّي أنْ أبلغَ الأعلى، متحرّراً من الأرض. علْماً بأنني لا أتخلّى عنْ كَوْني أرضيّاً، من أهل الأرض، الذين يصْعَدُون كيْ يتنفسُوا الهواءَ الخالصَ للكوْن. هوَاءٌ يُنْعشُ الأعضاء في عُلوٍّ لا يفكّر فيه أحدٌ بالتخلي عن صفته الأرضية، عن صفته جسداً من موادّ أحسها. تفرّسْ في وجهي وانطقْ بما تشاء. لكنْ تفرّسْ جيّداً، أيها الصاعدُ بي إلى الهواء. حركةُ كمنْجَة ، ومع الربّاب تتهدّجُ أنفاسي. تناقضاتٌ لا تكفّ عن التشكّل في ناحية ما مِنَ الجسَد.

بوادعة أحرّكُ اليدين. والقدمان تتحركان في فضاء الصّمت. موسيقَى تَخْلُق

طُقوس الرقص. كلّ حركة لحظةٌ من لحظات الرقص، في وقت لليأْس الكبير. وأنا أتحرّرُ منَ الأرض لأبصرَ الأرضيَّ. في دَواخلي أتنفسُ الهواءَ الخالص، صاعداً إلى أعْلى. ما يُصبح يَسيراً عليَّ هو أن أذوب بطاقة ثابتة، لها جلالُ المصاحبة، عندما تفتقدُ الشعلةَ التي كانت آوتْكَ ووهبتْكَ الحُلْمَ ألواناً لا تتخلى عن فرحها. فبأيّ ندَم يُمْكنني التعبيرُ عنّ كل ذلك البَهاء؟ حقاً، إن هناكَ في الحياة ما يجعلنا ننْسَى ونفرحُ بالإنصات إلى الموسيقى، لغةً لا تشبهُها اللغات.

.8

منْ جديد يلمعُ في الدواخل كوْنٌ هو الصفاءُ الأولُ للهواء، في وقت كنْتُ أظنه مستسلماً لليأس الكبير. أرى صَاعدينَ إلَى الهَواء يَنْبذون ما تعوّدْنا على تصنيفه أخلاقاً سامية، لا لأنهم بغيْر السُموِّ يتلفّظُون، بل لأن السُموَّ لديهم يأخذ دلالة متجددة القيمة. هُمْ وحدَهُم الذين يرسُمون له الأفقَ الأرحبَ، ضدّاً على مجتمع يريد أن يُغلّهُم ويقذف بهم إلى حيثُ لا يكونون أجسَاداً ناطقة بالشهوة. تلك هي الموسيقى، التي تدِبُّ في الأعضاء، في صباح أملسَ لا تخدشه كريهةٌ. وأنت هناكَ ترقُص.



كتابةُ الـمُذكّـرات

.1

أضعُ «ال» في البداية قبل الكلمة التي أقصد رصدها اليوم. «ال» التعريف، كما تُعلّمنا كتبُ النحو. وهي، على كل حال، متوفرةٌ في أغلب اللغات. بها نتخلى عن النكرة في صيغتها اللانهائية. «ال»، وها أنت أمام خُطورة ما ترى. كلمة تنتقل من حال إلى حال. هي الشكلُ المكْتملُ لما أنت مُقدمٌ على تأمله، حروفاً تلتئم في كلمة، ثم في جملة. ومن أدْرَاك أن ما تُقبل عليه هُو ما يهجُم عليك صامتاً، متوحداً؟

تلك عادةٌ محبّبة إلى نفْسي. عندما أستقْبلها أحسّ بابتهَاج يكادُ يكون غريباً عليّ. شيءٌ من القشعريرة ومن انتفاضَة أعضاء هي ما أملك، قائلاً لنفسي إنني مُواطِنُ الكتابة. في «ال» وفي ما بعدها، قشعريرةٌ. وأنا مُواطِنٌ من صنف مختلف، يظهر لي عَنْ قرب أوْ عن بُعْد، ناطقاً بتركيب يدنو منّي ويتجول في الحواسّ جميعها. مُواطِنُ الكتابة. وتلك «ال» التي لعبتْ بي، في وقت كنت عثرتُ على سؤال مَا معْنَى «ال» تعريفاً لنكرة لَمْ يمض وقت طويلٌ على اكتشافها.

هو ذا المصير، إذن. وأنا بين تَعْريف لا يُشبه التعريفَ. هو ذاتُه وليس ذاتَه.

في كلمة، في تعبير. «المذكّرات». ينحدر من منَابع الرغبة، ومن وضعية تأسرها توزعاتٌ أجملُ ما فيها أنها تُعيدني إلى البدءِ. مُواطِنُ الكتابة، كما لو كنتُ لم أهْتدِ يوماً بما كتبتُ، كأن جميعَ اللغات تحولتْ إلى لغة واحدَة.

.2

أمرٌ غريبٌ، سيقولُ بعْض الذين يقرأون هذا الذي أكتب. أو يقولُ عبارةً مجاورةً لها، ترد على الذّهْن، تلمُّساً لما يقرأ. لي ولهذا القارئ ما نشتركُ فيه. تلك الغرابةُ بالنسبة لي جاءَتْ من كلمَة تدخُل عليها «ال» التعريف. «المذكرات». أعني مذّكرات العثُور على عبَارة «مُواطِن الكتابة» وقد كنتُ من قبلُ عثرت على «وطن الكتابة». واستعملتُها. بل كان بُودي بدْءاً منها أن أشرع في كتابة مذكرات ترصدُ هذا التعبير، تنظرُ إليه منْ أضْلاع مختفية عني. فالعمليةُ مغْريةٌ، وهي في الوقت نفسه تشير إلى ما يُمكن أنْ يطرأ على جسَدي، على العين أو الأذن.

ولكني الآن في وضْعية ربّما كانت أكثرَ تعقيداً. «مُواطِنُ الكتابة». عندما نطقتُ بها، في حالة من الارتجاج، وأنا أقطع طريقاً، حدث ما يسلب طاقتي على إكمال قطع الطريق، متوقفاً، محتاراً، ثم متلذذاً. حقاً أنا مُواطِنُ الكتابة، في حياة هِيَ الكتَابة. كلمةٌ ذاتُ اقتصاد لا يَرمي إلى الإسْراف. وهو بحد ذاته مفرحٌ. حروف قليلةٌ من أجل كلمة واحدة.

في الانتقال من «وطَن الكتابة» إلى «مُواطِن الكتابة» سرٌّ لا قدرةَ لي على تخطّي ثقوبه، مهما حاولتُ، رغم أني أفضّل عدم الإجهاد. لكل معرفة وقتُها. أهدئُ نفسي، منتبهاً بجدية إلَى ما يحْدُث في الكلمات، بين الكلمات، في لمْح منَ البصر. وأنت هناك لا تدري، دائماً، ولا شأنَ لك في الإلحْاح على أن تدري في أيِّ لغة تكون. جسدُك ملءُ كتابة، ترتسِمُ، مسموعةً على الطريق، قطْع الطريق. المذكّرات. بأي منطق يمكننا الدفاعُ عن المذكّرات التي تقتصر على حياة كلمات

أوعبارات؟ إنه سؤال لا يقنعني، بتاتاً. فالمسألة، في المذّكرات، ذاتُ جاذبية خاصة جداً، ولا أعرف حتى الآن العدد الكافي من المذكرات التي كتبها الأدباءُ أو الكُتّاب العرب الحديثُون. ما يتوفر لدينا موزعٌ ولم يكتسب بعْدُ ما يستلزم النّظر إليه، باعتباره فنّاً مُرافقاً للفن بمعناه الواسع، من الأدب إلى الرقص.

نتوفر في القديم على كُتب الأخبار، بالنسبة للشعراء بالدرجة الأولى. وهم يستحقون اهتماماً كهذا، لا لرواية أخبار تُثير اللذة وحدها، بل، وهذا مهمٌّ أيضاً، بهدف تتبع أثر القصائد والشعراء، رغبة في بلوغ أقصى مَراتب الدقّة في التعامل مع الشعر. لدينا قبل كتب الأخبار وكُتبُ الطبقات، أعمالٌ نادرة استطاع أصحابُها مزْجَ موضوع الكتَاب بشذرات من السيرة الذاتية، هي صنفٌ من أصناف المذكرات.

سيبدُو الاهتمام بهذه المسألة مُنافياً لما تذهب إليه الثقافة العربية الحديثة. ومع ذلك علينا ألاّ نتسرع في إطلاق الأحكام على أدب ومرحلة. هذا الموقف يبدو لي متوافقاً مع أسرار مرحلتنا الثقافية الحالية، دون أن يعمل على تجنّب موضوع كان له أثره في القديم. وهو، في الحاضر الإنساني، لا يكف عَنْ إثارة باحثين أو قراء من بين الولوعين بالمعرفة. أعمالُ المذكرات التي نُشرَتْ، في بعض الأقطار العربية، أوتُنْشَر حالياً، هي من الندْرة بحيث لا بدّ من التساؤل عنْ سَبب عدم اهْتمام الأدباء والكتاب بالمذكرات الخاصة بحياتهم داخلَ الكتابة وفي محيطها.

.3

أعود مستغرباً من كيف أن العثور على تعبير «مُواطِن الكتابة»، في أرض غير عربية أثار لديّ ما كنتُ من قبل فكرتُ فيه مراراً، ولم أقدم على إنجازه. أي أنه أثار في نفسي كلمةَ المذكرات المعرفة بأل، حتى لا التباس في تعيين حدود المغامرة، متكررةً في الإلحاح عليَّ، وأنا لا أستجيب. كل ما فكرتُ فيه لم يصدر عن بُطْلان

ولـم يصدر عن دَافع خارجي يغري. أوْ لا يُغري. هو هُنا، في حياة مرصُودة لما يتركُ جسدي كتابة.

وعليَّ ألاّ أخشى الذّرائعَ الواهية، في كل مرة. كأنّ الكتابة لا تحتاج إلى فعل كتابي مُوازٍ لهَا، في دفتر صغير. أوراقٌ يومية تفْتَحُها من حين لآخر. وفيها تُلقي بوارِدِ اللّحظة، بين عبارة وعبارة، وقد عبَرتْ من الكلمة، أو من السؤال عن مصدر الكلمة. أحياناً يقتصر النظر على ما يحيط بهذا التعبير، «مواطِنُ الكتابة»، هذه المرة. وقد وضّحْتُ كثيراً من شرائط الانشغال بالكتابة سابقاً عندما عثرتُ على عبارة «وطن الكتابة»، تعبيراً حراً ينقُلني من أسئلة باطلة في زمني إلى أسئلة هي اكتشافٌ واستكشافٌ، ضمن حركية المجهول.

.4

في أرض غريبَة، بورْدُو الفرنسية، كما في بلاد غريبة عن بلاد أنتمي إليها ثقافياً وحضارياً، يحدث لي أن أتأمل كلمة معرّفَةً هي «المذكرات». كلمة مرتبطة بما عثرتُ عليه وأنا أقطع الطريقَ في مسَاء بارد. فوْقي غيومٌ، وأنا أمشي بين عرَاء الأشْجَار، مُحتاراً في كيف أن كلمة تلعب بي، في عبارة مثل، «مُواطِن الكتابة»، مشدداً عليها. لكنّني كلما تأمّلت استدركتُ أقوالاً تقفز في ذاكرتي المشوشة، بعيداً عن المذكّرات.

القـرَاءةُ أو الـمتَاه

.1

تعود إليَّ الحالةُ على الدّوام، وأنا أتقدم بلهفة نحو القراءة. قراءة كتاب أونص عزيز كنتُ تهيأتُ له أو عثرتُ عليه، فجأة، بين ليل ونهار. تلك الحالةُ أنسَى معها واجبات يوميةً لأبلغ أعْلَى مَراتب السديم، ثمّ المتاه. أحَيِّي تلك اللحظة، التي أقبل فيها على قراءة ما ينزعُني من أعباء. في الصمت أنفردُ بالكتاب أو بالنص. ذلك دأبي منذ سنوات أتعرف بها على حياتي ومماتي، عبوراً به أخترق المحال. وأنا أكاد أشرع في فتح الصفحات التمهيدية التي تهديني ما لا أبادله بأيٍّ قيمة مادية مهما كانت، في تلك اللحظة الزرقاء التي أشعرُ فيها بأن لي عالماً آخر يهبُّ عليَّ، بيْنَ ليْلٍ ونهار.

لِي أن أبتعدَ عن الضجيج وأُقبلَ على ما ليس عاديّاً في العلاقة مع الآخرين، شعراءَ وكتاباً وفلاسفةً وعلماء ومتصوفة ومؤرخين. كلُّ واحد منهم يفتح لي في الكتَاب أبوابَ ملكُوته الشخصي. هناك، حيث لا أدري، يحدث ما يفُوق الوصفَ، حتى لا كلمةَ في فمي سوى «أيها المعْجزُ، أنتَ سرّي». ذبذباتٌ في العظام لا تتوقف عن الانتقال من جهة في الجسد إلى جهة هي الدبيب، هي الارتعاش، هي البطشة

الكُبْرى. صيْحةٌ تأتيني من أزمنة قديمة، ولي النحُول. كمْ سيكون عليَّ أنْ أعيشَ كي أتابعَ هذا المدى الإبداعي ـ الفكري الذي هو مِلْكُ يدي وليس ملْكَ يدي في آن؟

يُصيبني دُوار. أهْلاً بك أيها الدُّوَار، وأهلاً بالحالة القريبة من أنفاسي. أنَا لا أميّز بيْنك وبَيْني، كلما أقبلتُ على قراءة ما هو أساسي، كتاباً أو نصّاً، في العبور إلى السّديم. وهلْ أنا قادرٌ على كتمان ما لا أدّعيه؟ معرفتي أشك فيها، يوماً بعد يوم. لا أزداد إلاّ شكوكاً في قدرتي على استيعاب ما أحتاج إليه من القراءة، التي لا تنتهي. هذا البحرُ الذي لا ساحل له هو مَا يتجسّدُ أمامي صورةً واسعة للعجْز عن الإحاطة بـمَداهُ الإبداعي ـ الفكري. وفي كل مرّة تَضْعُفُ مقاومتي.أحث جسدي على أن يخْلُوَ أكثر فأكثر بالصّديق، الفريد. وقدْ مجّده من قبلُ أبو الطيب المتنبي كما مجده حكماءاليونان.

.2

هي الحالةُ. هَلْ أستغيث؟ هلْ أدافع عن عزلة في زمن الضجيج؟ ليَ الحالةُ ولي كل هذا المدى الذي يمتدّ ويتسع، كلما أقبلتُ على كتابة نازلة من سائر أعضائي. جسدي مهووسٌ بالبحث عن اللانهائي، مهما تنادَى العابرون أنْ لا نهائيَ، بعْدَ أن أصبحَ الكتابُ مثْلَ قطعة جُبْن يقدّم للاستهلاك في لحظته. بعْدَ لحيظات يعفن أو يُرمَى في المزابل، ما دام مصنوعاً في أحْقَاق سريعة الصدإ. يصدر كتابٌ لأجل أن يُقرأ بسرعة، ويُرمَى بسرعة، ويُنْسَى بسرعة. عصر السّرعة يدمّر كلّ واقع بآلة مجنونة هي آلة الاستهلاك. وها هيَ السرعةُ تجعل الواقعَ نفسه أسرعَ، حتى تكاد تشك في الواقع نفسه.

يَدي تلْمسُ الورقات، وعيني تستغرقها السّطور. سوادٌ على بياض. إنّ لي جسَداً يُمكنه أن يسْكُن ما يقرأ، يوماً بعد يوم. وأنا منجذبٌ إلى ما يتردد عليّ في

صيَغ متشابهة أو متعارضة من عبارات. حوار صامتٌ مع المقروء، كلما وقفتُ على ما يعجز، أيْ علَى ما لم يخطُر قطُّ على بالي من قبل، أو ما كنتُ تقاطعْتُ معه دون أن أعطيه قيمةً مخصوصة. مُعْجزٌ حاضر على ورقة، والورقةُ أشْتركُ مع غيري في قراءتها. لقد جَاءني الدّوَار. فلأسعَدْ به، ولْتبتَهجْ به أعضائي، وليكُنْ لي مُقاماً متجدّداً من كتابٍ إلى كتاب، صفحةً عليها أدركُ أن لي حقاً في هذَا الكتاب.

.3

هل أُفاضلُ بين القراءة والمتاه؟ أبداً. إنهما صنْوان للحَالة التي تُلازمني في المسَاء والمسَاء. أو أحياناً في أيام متوالية، لا يحدها شيءٌ غيرُ ما أقرأ، حاملاً قلماً به أتتبّعُ السُّطور بانتباه. أو ربما يكون جمالُ الكتَاب أقوى من المساس به، فلا أجْرأ على غيْر تسجيل ما يستبدّ بي في ورقة مُنْفصلة، هي مذكّرة القراءة. غالباً ما أُصاب برعب ألا أخطّ تحت الجُمل والعبارات خطوطاً واضحةً، أو في هامش المكتوب خطاً عمودياً بجانبه تعليق مقتضب جداً أو علامة تعجب أو علامة استفهام. وهي جميعُها تفيدُني في العودة ثانيةً، وبعد الثانية، إلى المكتوب ذاته لأتأمل وأعيد التأمل، راغباً في التأكد مما قرأتُ أو ملحّاً على عدم افْتقاد إشارة اللقاء الأول بما قرأت.

وها هُوَ المتاهُ. لِمَ يستولي عليّ الشعْرُ كلما كنتُ أقرأ ما يدهشني، أي ما يرجع بي إلى تلك اللحظة الطفولية التي أكون فيها وجهاً لوجه مع مجهولي؟ دهشة السؤال أمام المقروء أو أمام العالم أو الإنسان أو الأشياء. هل استيلاء الشعر عليَّ معناه أن الشعر لا يزال يحْتفظُ بقوّة اللانهائي؟ أعتقد ذلك. إنّ لي علاقةً مخصوصة باللغة، ومنْ خلال اللغة بكل ما يحيطُ بي ويفعلُ في أنفاسي. وأنا في هذا لستُ بريئاً من الاحتفاظ بالشعر كقيمة عُلْيا للدّهْشة. وهو بذلك يتجدد حضوراً، في الكتابات المتعددة.

.4

يشترك المتاهُ مع اللانهائيّ في حرف واحد هو« الهاء» حسب اللغة العربية. مع ذلك فإن هذه «الهاء» هي سرُّ أسرار الكلمتين معاً. ولكنهما تنفصلان عن بعضهما وتجتمعان دون اختيار في كلمات الهُوَ، اللّه، الهَلاك، الهُجوم، المهْد، المهْبل، الهَلال، السّهْل، الوجْهُ، النّهْد، العمَهُ، النّهار، الوهْم، الإبْهَام، الهَجْهُوج. كلمات فيها «الهاء» تلعب بي، كما تلعب بغيري. «هاء» تلقي بي في المتاه. كل كلمة تحتفظ بسرّ أن أمْشي تائهاً، من كتاب إلى كتاب. ولي خوفُ أن يتحوّل المتاه عنْ مكَانه، وألا يدومَ في المَساء والمَسَاء.

رغبةٌ وحيدةٌ في أن يحيلني كتَاب علَى كتاب، ونصٌّ على نص. أتركُ الورقة مفتوحة، وبلهفة أفتّش عن الكتاب أو النص في مكتبتي الصغيرة، أو لربما أغادر البيت باحثاً، حيث من الممكن العثورُ على تلك اللّمْحَة التي اختطفَتْ بصري. وعليَّ أحياناً أن أنتظرَ الزمن يَفْعلُ فعْلَه في مدينة أخرى، في بلد آخر، حيث الّذي أبحثُ عنه محفوظٌ بعناية فائقة. أحياناً يعْظُم القلق، بسبب أنّني لا أستطيعُ الحصولَ على الذي أبحثُ عنه. ذلك بعضٌ من آلام الإقامة في بلَد لا يسمح لي بالتعامل مع الكتَاب كضرورة وجُوديّة. وفي هذا يدركني اليأسُ. أسْوارُك أيها البلد أعلى من مجهود التسلّق، حجَرةً فحجَرة.

وعليّ أن أسعى في المتاه. هلْ هو اختيارٌ أم هو السبيلُ الوحيد المتوفر لديّ في القراءة؟ عندما أوقدُ مصباحَ الفجر، يكون هدوءُ العالم صافيّاً وصوتُ الخُطَى خفيفاً. هناك الجسد والكتاب. لقد استرحت أثناء الليْل بما يكفي كي أكون في الفجر مع الكتاب بيديْن مضطربتين. أحْملُ الكتابَ، وهو ليس مجرّد كتاب. إنه نَفسٌ متهدّج لشخص لي معه صداقة، أو إنني مُتهيّئٌ لها. شخص؟ لا، إنه ليس مجردَ شخْص. إنه من هؤلاء الذين يعطون الإنسانية معنَى أن تعيش، وتبحثَ عن

معنى أن توجَد، فوق أرض وتحت سماء. هما معاً يتواشجان في مُواصلة المتَاه، مع صفْحَة السماء التي تتدفق منها زرقةٌ ثم ذهبٌ ثم ضوء.

.5

بالكتَابِ أفترشُ البسيطة. أقول لهَا اجْعليني من بيْن مُريديكِ الذين لا يَخْشوْن أن يتوحّدُوا ببُكْرةٍ تعْمُر الأرض، انْزَعي عني ترسّبات الأنا المريضة. وفي الكتاب هذا الهواءُ يهبّ من أقصَى الأزمنة. أسكنُ لأظلّ مخلصاً دائماً للتّيهان. هو الذي أعْطَى وعلَّمَ. أتْبعُ ظلاًّ وما هُوَ بظلّ. أعاندُ الوقت كي يطيع. أستنْفرُ ملاذاتي، هارباً من ضجيج. وتحت سقفك لا يكسوني غير الضوء. أتذكر الموتى، موتاي. ومن جمرة الكلمات أشْربُ النفَس الأصلي. لي كلُّ ما كنتُ وما يُقبلُ صارخاً، أو جارحاً، أو رحيماً، أو مُسَلّماً، أو صدّيقاً. وفي الكتاب أخطّ منامتي غباراً عاصفاً، حاملاً اسْمي دامياً، على طَبق من الفَخّار.

ولا أنسى أنني أقرأ تلك الصّفحات الهادئة. هي التي تخْتزن الزّلاَزل كلّها. قصيدةٌ في الصباح تقرأ جغرافيتَها المتخفية عن الذين لا يستحقونها. وهيَ، من بيت إلى بيْت، تمنحُكَ ما تستأنف به تحيةَ الشعراء، أحبابك البعيدين والقريبين، الذين علّمُوك كيف تتواضع أمَام القصيدة، وكيف ترى في سَاكني الديار صورةً للديار أيضاً. إنهم يَسْتأنفون حُريتهم في القراءة، مع صَديق ربما لم يتوقّعُوه. وهم ينظرون إلى مستقبل قصيدتهم على الأرض، بين شُعوب ولغات فيها أصبحت قصائدهُم ساريةً. في زمن التيئيس من الشعر، وفي زمن اصطناع نهايته. بهؤلاء تسْعد في بُكْرة الهواء.

.6

ولي صديقٌ حبيب يشرف على الخمسين في هذه البلاد التي تسمى عربية.

أعلم أنه هناك. وهو معي في الفجْر. قصيدتُه تظهر لي من وراء حجَاب هو الزمن، هو العذاب. قلبه ينبض بالمحبة. هذا الصّديقُ، الذي يستبسل في مواجهة اليأس من عالَم لا يقودُ إلاّ إلى دمار، يجلسُ قريباً مني. يود أن يُودِعَني قلْبه ويضيع عبر أزقة وشوارع لم تطأها قدماه من قبل. لعله يضغط على هدير يَكادُ يفجّر أحشاءه لكثرة ما خبَر العزلة هناك. ولم يهدأ قليلاً لكثرة ما ضرب بجَسده الحائطَ الفولاذي، فإذا بالحائط لا يزدادُ إلا جفاء لكثرة ما غنّى للشّمْس وللعطش. ودائماً من حيث أتى يَعُود.

الحالة طوفانٌ ينزلُ من الجبال ومن الكتفين. بُكرةُ الهواء تلفح عندما أتيقّن من أن ما ينتظرني أعْتَى مما تعودتُ. فلا رحيلَ إلا في المقروء، كتَاباً أو نصاً، ينحرف كل منهما عن حركة أصابعي. ويداي مضطربتان. كيف لي أن أضمّ هذا المدى الإبداعيَّ ـ الفكري وأنا قعيدُ بيْت نأى عن مَصادر الإنتاج الثقافي؟ كيف أظل أقترب من هذا النهر الممتد عصوراً وعصوراً فإذا بي لا ألمس ألا مَا انتزعتُه جهداً يوميّاً من الزمن الذي ليس زمني؟ إنني على أبواب أسئلة هي كلُّ ما يعطيني حاسّة مواصلة القراءة. عمْرٌ أقضيه بحثاً عن كتاب، من تلك الكتب التي لا يعرضها أيُّ كتاب.

في بُكرَة الهواء وضعتُ يدي على زرقة، بل على شيء من الزرقة. صفحاتٌ تمنيتُ لو كنتُ قرأتها في مرحلة الشباب. عدمُ قراءتها، في تلك المرحلة، ربما أجّلَ وعْياً أعمق بالعالم من حولي. لقد أضعْتُ وقتاً طويلاً، قبل أن أطلّ على معرفة بها أستنطق المجهول. وذلك لم يكن محضَ إرادة. اللغةُ والوعيُ العامّ وما يحكُمك وأنت غافل عن كل ذلك وغيره. وأنّى لي أن أستدرك في شيخوخة مبكّرة، وطُرق مسدودة. لا مفرّ من أن تُقرّ بكونك من هذا العالَم الثاني. من هذه الهاوية التي يبقى فيها للجهل كلُّ ما يُفْضي إلى الجهل.

.7

يحْسُن بي ألا أتوهَّمَ. إنّني أنْتمي إلى عالَم عربي يُحبّبُ لي أن أكون على هامش المعرفة، أيْ بدون قدرة على قراءة الأساسي، إبداعاً وفكراً. اليقينياتُ مأوايَ. والفصاحةُ مخلوق به يَسْتعبدُك القائمون على الثقافة والفكر والشعر والفنون. لا تنطقْ بمعرفة زمنك الكوني، وإلا فأنتَ مصابٌ بالألْقاب العَديمة الذّوق. كُنْ ناطقاً بالمُتداول واستشهدْ بما قرأوه. ذلك حجّةٌ لك في الكلام وفي الكتابة. سِرْ حيث سَارُوا. انْصَرِفْ عن سؤال وعن شُكوك في اليقينيات. تحلَّ بجمال أن تتكلم عن المبادئ التي يتركونها عاليةً من فوقك، مرفوعة في شكل مقْصَلة لكل رأس يضحك من رُغَاء المعرفة. وإيّاك، إيّاك. إياك أن تبوحَ بأنك منْ مكَان هو غيرُ مكَانهم. إذن ستكون غريباً، مغترباً، مُغْرباً، غارباً.

كيفَ لكَ أن تُسمّيَ الضجيجَ بغيْر القبْر؟ والمعلومَ بغير المانع؟ مرّةً بعد مرة أرى الورقة في كتاب. وأنا أتساءل هل كَان بإمكان عربي في زمننا أن يكتب ما كتبُوه، أكانوا من عربنا القدماء أمْ كانوا من أبناء الأزمنة الحديثة في الدنيا، غرباً وشرقاً ؟ كيف كان بإمكاني أن أندهشَ لَوْ لم أكُن أقرأ بلغة أجنبية، فيها أنعَمُ ببُكْرة الهواء؟ أسخرُ من نفْسي ومما يُسمَّى كتاباً عربياً حديثاً، في هذا الزمن، باستثناء أعمال وحيدة مُبعدة عن الدرس والقراءة. هي مُتّهمَةٌ بحُريتها أو مُتّهمة بكونْها لم تصْدُر عن أصحاب الكلمة المصونة، في الثقافة العربية الحديثة.

الكتَاب. يُصيبني خَبَلٌ في بُكرة الهواء. هلْ أنا من هذَا العالم أمْ منْ عالم لا شأن للعالم به ؟ يدٌ تتوقف عند صفحة عاجزة عَنْ طيِّها. هي صفحة تقطِّع الجسد، إبداعاً أوْ فكراً. شعرٌ، فلسفة، علمٌ. مِنْ أين لي أن أطويَ الصفحة؟ إنها تبعدني عن الضجيج لتعود بي ثانية إليه. الوجعُ يثقل الرأس. ما الذي أنتظره في هذا اليوم، وما بعد اليوم؟ جسدي يتشقق لمجرد أنني سأتركُ الكتاب وأنصرفُ إلى قضاء واجبات تمنع عنّي بُكْرة الهواء، في كتاب هو أعزُّ ما ينادي عليَّ، في المساء وفي اللحظة

الزرقاء للفجر. أصواتُ الصفحات تعلُو. وفي صدري أسمعُ الرنينَ، يتجارب معَ رنين في صُدور نَائية لأمْوات وأحْيَاء.

.8

على وجهي ينتشر الكتابُ (أو النصُّ) غمامةً زرقاءَ. لست دائخاً تماماً، هي أنفاسي تتعشّق التهدجات. هذا بُدِّي. بُدٌّ قادم من أزمنة متداخلة، في المدى ينشأ. عرِّضْنِي للهلاك، جُدْ علي. أحسسْتُ أنّ الكتاب، بلُغات أخرى في أزمنة لم أعشها، وفي بلاد بعيدة، كتابي. لي فيه حقٌّ كما لغيري، متوحّداً أظلّ أصرخ في بُكرة الهواء. جُدْ عليَّ بالسديم كله. وهناك صديقي، علَى مشارف الخمْسين، يصعد من مغارة الضجيج.

عمَلُ الشّاعر

يُفاجئك رأيٌ عامٌّ متداول، بين أهل العلم والثقافة، يخصّ عمَلَ الشاعر. وأنتَ كلّ مرة تُحاول أن تَفْهم مصْدَر الاستمرار في تَدَاول هذا الرّأي العام، دون أن يُثير نقاشاً جدّياً و، أكاد أقول، أساسياً، عن المقصود بالضبط منْ عمَل الشّاعر. هذا ما يصْعُب أنْ تُجادل فيه أحداً، سوى أقربهم إلَى نوعية العمل الذي بدونه لا تقوم للقصيدة قائمة. رأيٌ عامٌّ يعودُ، كلَّ مرة، لينغّصَ عليك وحدتك ويُبعدَك عمَّا تطْلبُه منك القصيدة، كما كانت تطلبُه من السابقين عليكَ، في الأزمنة التي كان الشعرُ فيها ممارسةً لها دلالة المُخَاطرة.

ولا يكادُ مشْرقُ العالم العربي يختلف في هذا الشّأن عن المغرب العربي. هُما معاً يتّفقان في النظر إلَى طبيعة عمَل الشّاعر، وهُما بذلك يتوحدان في الرؤية ذاتها ويَنْدرجان في المنظور ذاته. ولا صعوبةَ في تفسير الرؤية الموحدة، ما دامت أسس الثقافة العربية الحديثة أصبحَتْ منذ السبعينيات، على الأقل، منغرسةً في عموم العالم العربي. من ثمّ تجدُ هذا الرأيَ العام معبّراً عن وضْع ثقافي أكثر مما هو يخصّ فئة من الأفراد نتفق أو نختلف معها في قضايا، نُسميها خاصة. بل إن التعبير

يَشْمل مرحلة تاريخية تختلف تماماً عن المراحل السابقة للثقافة العربية، رغم الطابع التقليدي الذي يحْكُم حياتنا الثقافية.

وعلينا أن نصدّق قليلاً هذا الواقع. ذلك ما نخلُص إليه ونحن ننتقلِ من حالة فردية إلى حالة جماعية، تلتئم فيها خيوطُ الرأي العام، شيئاً فشيئاً. لا نفلت من هذا الرأي العام كلما تقدمنا في النقاش، أو كلّما اصطدمْنا بالحياة العمَليّة أو العلمية على السواء، في مجتمعاتنا التي تعيش فقراً ثقافياً يصعب أن نتناول قضية معالجته بهذا القدر أو ذاك من الحكمة. وأن نُصدّق لا يدلّ على موافقة. كما لا يدلُّ على تدبير بعض قضايانا الثقافية بكلمات المجاملة التي نُسْديها لأنفسنا أو لغيرنا، من أجل خلق جوٍّ من المودة وعَدَم الرغبة في تعْكير صفْو الكلام.

الموقف الأخلاقي من الواقع (والواقعة) غير صحيح. علينا، بدلاً من ذلك، أن نتخلّى عن كل أشكال المجاملة في حياتنا، كلما كُنّا وجْهاً لوجه مع رأي عام ثقافي يُرجعنا إلى ما لاَ علاقة لهُ بفعل الثقافة. كما هو حالُنا عندما نكون أمامَ رأي سياسي أو ديني أو، أكثر من ذلك، رأي ثقافي، لا نتّفق مَعهُ. وعلى هذا، لا مناص من المساواة في النقد بين المواقف الدينية والسياسية والثقافية، إنْ نَحْنُ لم نكُنْ، في موقفنا من الأدب والشعر، أكثرَ جُرأة في التحديد والتوضيح.

عَمَلُ الشاعر، في الرأي العام الثقافي، لا يعْدُو أنْ يكُون محْصُوراً في كتابة أبيات شعرية لا تتطلب وقتاً، لأنها، بالإجمال، قليلة. ويُمكن أن يَقوم الشاعر بذلك متى شاء أو، على الأرجح، في وقت الإلهام الذي هو مصدر الكتابة، وخارج عن أي مجهود مخصوص يبذله. فالقصيدةُ تأتي الشاعر وهو يقوم بتدْوينها أوْ حفْظها في الذاكرة، عن ظهر قلب. ولا حَدَث يُثير العجب، قبل ذلك أو بعده. ولَوْ دقّقنا في هذا الرأي العام الثقافي لوجدناه يركّز على الوقت القصير، الذي تستغرقُه العملية بكاملها، محصوراً في الزمن الذي هو القيمة المثْلَى للعمل وللحياة الحديثة برمتها.

لا أبالغ في وصف هذا الرأي العام الثقافي. فغالباً ما يُفاجئني به أقرب الناس إلى علاقاتي الثقافية. فالباحثُ الاقتصادي، مثلا، يتذرّع بأنه يبذل المجهودَ القاسي الطويل، تنقيباً عن معلومة. والعالم الكيميائي لا يملّ من عَرْض السّاعات الطوال التي يقضيها في المكتب أو المختبر، عملاً متواصلاً من أجل الوصول إلى نتيجة في مجاله العلمي. وأهلُ العلوم الإنسانية يتذرعون بندرة المصادر وحداثة النظريات وصعوبات ترجمة المصطلحات. وبذلك يظلّ الشاعر في أدْنى مراتب العمل، من حيثُ نوعيةُ ما يعملُ والزمنُ الذي يتطلبه عملُه.

وعند المقارنة بين عمَل الشاعر وعمَل الروائي، تتم الغلَبةُ لصالح الروائي الذي يكتب كمّاً من الصفحات أكبر ممّا يكتبه الشاعر، انطلاقاً من مُتخيّلنا عن الكم كقيمة عُلْيا في زمننا. فلا المكانُ ولا النوعُ مما لهُ الاعتبار. وعلَى المنْوال ذاته يمكن أن ننْظُر إلى عمل السينمائي أو الموسيقي أو الرسام أو المسرحي. أعمالُ هؤلاء جميعُها تظهر فيها نتائجُ العمَل مجسّدة في الكمّ، كما هي متجسّدةٌ في أشياء ملموسة، يكفي أنْ نراها حتى نقدّر الوقت الذي تطلبه إنجازُها.

مقارنات لا أسْعَى إليها. هي موْجُودة في واقع الحُكْم أوْ وَاقع الرّأي العام الثقافي المتداول عن عمَل الشاعر. وقد نستسلمُ بيُسر، ونحن نتابع منْطق المقارنة الذي يعتمد الظّاهر والملموس، ما تراه العينُ أمامها وما يصطدمُ به الجسد ولا سبيلَ إلى نُكرانه. على أن المقارنة تُصبح ذات بُعْد مأساوي حينما نَنْتقل من المجال الفني إلى المجال العلمي. هنا نكون أمام الأصعب. لا يمكن بتاتاً أن تتكلّم أمام تكْنُولوجي أوْ أمامَ خَبير في الشّؤون المالية والاقتصادية، وهُما الطرفان اللذان يُدبّران الشؤون البشرية، خبْرات ومعارفَ ومعْلومات ومُعادَلات. أيّ رُعْب يمكن أن تشعُر به وأنتَ تُنصت إلَى هذَا الصّنف منَ العُلماء والخُبراء وهُمْ يتناولُون بلُطفهم عملَ الشّاعر!

هلْ نستمرّ في وصْف كهذا ؟ يبدُو لي أنّ الشاعرَ، في الرأي العام الثقافي،

لا عمَلَ له. أو إنّ عملَه، في أكبر تَقدير، ينْتمي إلَى صنْف الأعمال الكسُولة. عمَلُ اللحظة الأخيرة. خال منَ التّعب، ولا يستحقّ بالتّالي تسميتَه عملاً. إنّه نشاط. الشّاعرُ صاحبُ نشاط ومزاج وتَخيّلات. وهذه كلُّها سريعةُ الحدوث، في بُرهَة. وهَا هيَ القصيدةُ التي يمكن أن تسْحَر الناس. عمَلُ اللاّعَمل. وقُلْ ما ترغبُ في إضافته إلى اللائحة القدْحية، التي نتركُها لعمَل الشّاعر في زَمَن لا يسألُ عنْ ضرُورة الشّعْر ولا كيْفَ يكُون الشعْر أو يعمل الشاعر.

إن هذَا الرأي مَقيسٌ على حَجْم القصائد، التي تَنْتشر بسُرعة، في الاحْتفَالات العَابرة بما ليْسَ شعراً. ولا يأتي الشعرُ، في مُناسبات كهَاته، إلاّ ليُضاعف الحجَاب بيننا وبين الشّعْر. رأيٌّ عامٌّ ثقافيٌّ في زمننا الحديث، الذي انفصَل فيه العَربيُّ عن تاريخ وتقاليد ومعَارف القصيدة منَ الجاهلية حتّى العَصْر الحديث.

وكلما تفرّعَ التأملُ في الجهات العَديدة للرأي العام الثقافي حفّتْ بنَا أعطاب. ولا سبيلَ إلى نشْر ما هُو مُضادّ. كتاباتٌ عديدة من لدُن الشعراء في تاريخنا الشعري الحديث، وخاصةً منذ الرومانسيين، سعَتْ إلى إثبات وعْي مغاير بعَمل الشاعر. ولكن ما تبقّى، في النهاية، هوَ أنّ اللاّعَمَل ميزةُ عمَل الشاعر. يَكتب في مقْهَى، أثناء ركُوب الحَافلات، في خَلاء، بدُون ورقة ولا قلَم. يعني أن كلَّ مكان وكل وقت هو لهذَا اللاّعمل. وماذا ينتظرُ الشاعرُ بعْدَ ذلك؟ أيّ اعتراف يمكن أن ينتظرهُ منَ الرأي العام، الذي هُو، علَى كلِّ حال، ثقافيّ؟ الناسُ البسطاء لا يفكّرون في الأمر تبعاً للاّمُمكن. ثمّ لا تُتعبْ نفسَكَ في اخْتراق سَديم خطاب هُو نقيضُ ما يتطلبه الشّعر.

وباسْتعراض المواقف نَصلُ إلى مَشْروع السؤال عمّا ورثْناه من تقاليد الشعر العربي، أوْ منْ علاقتنا بالعالَم الحديث. كأنّ ما عاشَه الشعرُ العربيُّ وما يَعيشُه الشعرّ العالميُّ، خارِجٌ عن دائِرة تفكيرنا. المجْدُ لأصْحابِ المقرّرين في شؤون العلْم والاقتصَاد. وما عدَا ذلك فإلَى اللّهْو ولربّما إلى الجَحيم. تَعابيرُ لبقَة عندما

يستوجبُ الموقفُ اللباقَة. لباقةٌ تَخضع في الأساس لمتطلّباتِ المجاملة، رغم أنّ وضعيتنا تنتفي معَها حتّى المجاملَة. قليلٌ منَ الكلمات على صفْحَة. والشّاعرُ لا عمَل له.

مسألة مؤرِّقَة، لاَ لأنّها تتّصل بوضْع أشْخَاص أسَاسيّين في مجتمع وحضَارة، بل لأنّها تصْدُر أيضاً عن جهْل حقيقي بعمَل الشاعر. يحْدُث لشاعر أن ينشئ مقْطعاً وهو يرْكَب حافلة، كما يحْدُث لريَاضي أو اقتصادي أن يحُلّ معادلة رياضية أو يعْثُر على قانون علْمي وهو يلْهُو يتزْجية الوقت في مزاولة لعبة الورق. ما الضّرَر في ذلك؟ وهلْ هذا هُو المعيارُ الأخير لقيَاس عمَل الشّاعر أو الاقتصاديّ أو الرياضي؟ مَنْ يجْهَر بقول كهذا جاهلٌ بمَسالك البحْث والإبداع، ولكنّ ذلك لا يدلّ على شيْء معَ أوْ ضدّ فهْم عمَل الشاعر.

ينطلق التأمُّل بدءاً من التّقني ليتجَاوز ما هُو تقْني. وفي الحالين نكونُ على خطإ ونحن نعتقدُ أن عمَلَ الشّاعر هو اللاّعَمَل. لا. أبداً. وهو ما عليّ الجهْرُ به، ولو لنفْسي، نفاذاً إلَى أساسيات كتابة القصيدَة، معرفةً وإحساساً، على حدٍّ سواء. فأن تكتبَ قصيدةً لا يعني حتْماً أنّ كتابتها متوقّفةٌ على لحظة كتابتها دون غيرها. منَ السّابق عليْها. حياةٌ بكَاملها تختزلُها القصيدةُ، كلُّ قصيدة، مهما ضؤُل عددُ أبياتها.

لو قُمنا بإحْصَاء الأعمال التي يقوم بها الشاعرُ والوقت الذي يقضيه، من أجل قصيدة واحدة، لَهالنا الأمر. ولْيسْخَرْ مَنْ يشاء. لسْتُ مسؤُولاً عن الجهل بعمَل الشاعر، منْ طَرف الرأي العام الثقافيّ، وبما ينتجُ عن ذلك منْ تُراتب في المعرفة أوْ في الإنتاج أوْ في الجهد العضلي. الشاعرُ مسؤولٌ أوّلاً عن الوعْي بما يعْمَلُه. هُو مَنْ يجبُ أن يتعرّفَ بحرْص وشجاعة علَى سلسلة الأعْمال التي يقُوم بها، أوالتي لا تسْمَح له وضعيتُه الاجتماعيةُ والمادية القيامَ بها، إخلاصاً للقصيدة، ليلاً ونهاراً، بين مَكْتبات وتربية حواس وأبْحَاث ميدانية، علَى طريقته هُو، مثْلَمَا لكُل عمَل

خصيصتُه الميدانية. وهُو منْ يجبُ أن يعْرف كمْ يلزمُه منَ الوقت، لأسابيع وشهور وسنوات أحياناً، في العمل أو الانتظار، من أجل كتابة قصيدة، قصيدة واحدة. وهُو مَنْ يجبُ أن يَعْرف أيَّ جسد يحتاجُ إليه، عندما يجلسُ اليومَ والذي يليه، لا يكادُ يتحرّك، يقظاً، يُقاوم العيَاء والشّكْوى.

عمَلٌ شاقٌّ، طويلُ النفَس، يفْعَلُ في الجسد مثْلما يفعلُ في الزّمن. ذلك هو عمَلُ الشاعر. لا يتوقفُ الشّاعر بتاتاً. وفي حَالة التوقف، يتعرّض للخُسْران. ذلك أوّلُ ما علينا الانتباهُ إليه، عكْسَ ما يُوهمنا به الرأيُ العام الثقافي. فليْس بوُسْعنا أن نتعلمَ كتابة القصيدة لمجرّد العثُور على نَزْوة أوْ علَى شهوة. هُما معاً ليْسا كافيّين، ولا كانَا في يوْم من مُبتدأ القصيدة. عمَلُ الشاعر مضادٌّ للكَسل، وللتخلّي عن التّثقيف الدّائم في معَارف مُتعدّدة ومتشعّبة، عن انتظار وانتظار. وهيَ جميعها أساسُ الشّعْر كعَمل نوْعيٍّ، فضْلاً عن كوْنه يخترقُ الزمن.

وكَمْ أسْعَدُ وأنا أقرأ أكْبَر العُلماء والمفكّرين، في العالم الحديث، يُقارنون بين مجْهُودهم وبين مجهُود الشاعر، بيْنَ عمَلهم وبيْنَ عمَل الشّاعر. به يستشهدُون وبه يَحتجّون، وهم يبْلغُون الدّرجات العُليا من القَلق والحيْرة والاكْتشاف. عمَلٌ مؤرقٌ لأنه يتمّ بالجَسد ولأنه معرفةٌ مخْصُوصَة في زمن لا ندرك فيه معْنَى الزّمَن.

الـخَـلْـوَة

.1

بهذه الكلمة أفتتحُ الصباحَ. كلمةٌ واحدة تنزل من مَغارات الحيرة، وفي عالمها أكادُ أفتقد التّوازن. تلك هيَ علامة ألاّ أعودَ من حيثُ أتيْت. كلمةٌ منها تظهر ثقافةٌ شملتِ اللغة بطبقات من الألوان. الكلمةُ وحدها. بين المُدنّس والمُقدّس. وهذا الماءُ الذي ينسابُ في العَينيْن والحلق والصّدر، يفيض بشعْشعة أراها تركُض على أرض هيَ نفْسِي. لا أخادع مَنْ يحدّثني، الآن، وأنا في حالة من التّبدّد. حالةٌ بجانبي تسهرُ، وكأنّ ما بيننا مجردُ مكانة نسيَها صاحبُها.

ذلكَ التبدّدُ هو ما يستحوذُ عليّ كلما أقبلتُ على الكتابة، ووجْهي شاحب. هو الصباحُ. والأفقُ الغريبُ الذي يتشكّلُ من كلمات. لكنّ الكلمة، هذا الصباح، أشدُّ إلحاحاً ممّا كانت من قبلُ عليه. كلمة «الخَلْوة» أقصد. وفي تموّجات هادئة تظْهر على لساني، ثم علَى أصَابعي. لا أدري، هل حدثَ هذا صدفة أمْ أن الصمتَ في غرفة كان استدْعاها لتظهرَ حُرّةً من قيود كانتْ بها مشدودةً. ليالٍ قديمةٌ مضتْ على الكلمة، وأنا أقرأ العالـمَ السريَّ الذي يصُونها. لؤلؤةٌ في محارة والمحارةُ في الكفّ. إنها هناك، كنتُ أذكّرُ نفْسِي على الدوام. هذه الكلمةُ التي راودتْني ربما

كانتْ لصيقةً أكثر بما كتبتُ من قصائد في بداية حياتي الشعرية. صمتي كان يدومُ في تلك الغرفة المعلَّقة في الطابق العلويِّ من البيت. دبيبُ الكلمات كانَ يعْبُر جسدي. ولا شيْءَ سوى الكلمات في حياتي. كيفَ لي أنْ أظْفرَ بالقصيدة؟ كنتُ أهذِي، وعلى لساني شتيتٌ من تلك الكلمات. أناشيدُ تصطفّ عاريَةً وأنا، أمامها، أعزل. هجوماً تبدأ الأناشيدُ، وفي السريرة لْوعةٌ مُسْتعرَةٌ، كما كنتُ أفضّلُ أن أصفَهَا في تلكَ الأيام. وبيْني وبيْنَ الأناشيد، وفي تلكَ الغُرفة، ما لا يُعبَّرُ عنه.

.2

أتركُ الأناشيدَ تمتزجُ بي، لعلَّها تستدْرجُني إلى جَحيمها، أو تفترسُنِي بهُدوء مُريب. أنا الآن أتأمّلُها، من جديد. بعد سنوات. تاريخٌ بكامله ينهضُ من أحشائها. ليالٍ وأيّامٌ فيها كنتُ لا أفارقُ التأمُّل. يستغْرقني السؤال. وفي العزلة عن الآخرين، مع الآخرين، أظلُّ موزَّعاً بين السخرية والحيرة. هل مَا أنَا فيه خاصٌّ بي أم هو حالةُ كل من يكتبُ قصيدةً ثم يستأنفُ كتابة قصيدة من غير مَوْعد واضح مُسْبقاً في مفكّرته، عكسَ شعراء يلتزمون بمواعيد مَحدودة، هي الأعيادُ والحفلاتُ و«الحوادثُ الكبرى»؟

لا وضوحَ ولا اختيارَ لي. السخريةُ أو الحيرة. ويدي، التي تتأهّب للكتابة، شبهُ محروقة. نيرانٌ تلتهمُهَا في كلّ آن. وعليَّ أنْ أطمئن لتلك الأوقات التي تأتي فيها القصيدة وكيف تأتي، رغبةً في الانتماء إلَى القصيدة في لحظتها الحرّة، الفريدة. تلكَ أسئلة لم أتجرأ يوماً على طرحهَا بين الأصدقاء خشيةَ أن يتهمُوني بالعجْز عن الارتجال، الذي كان عنوانَ فُحولة أنفرُ منها. لستُ فحْلاً. كنتُ أصرخ في نفْسِي. أنا عاشقٌ للقصيدة، وهي التي تخطفُ يدي متى شاءت وتُلقي بهَا إلى الكتابة.

.3

«الخَلْوة». هذه الكلمة، التي كانت متداولةً في اللغة اليومية بتصريفات ودلالات مدوّخة، كنت أحسّها صديقةً لحالتي. مع ذلك فإن الإحساس كان أعْقدَ عند الانتقال إلى وعْيي الثقافي. لم يكنْ كافياً ذلك الإحساس. هذا ما كنتُ أفكر فيه حتّى أصبحْتُ، بفضل شعراء حديثين من أوروبيين وعرب، أعودُ شيئاً فشيْئاً إلى الخطاب الصوفي، الذي كانتْ شذراتٌ منه تعيش حياتَها الخاصّة في الحياة العامّة للفاسيّين وغيْر الفاسيّين.

ولكنّني في أرض غريبةٍ، أرض الكتابة، أوْشكتُ على اللقاء بكلمة «الخَلْوة». تراءتْ لي فاتنةً هذه الكلمةُ، وأنا أنصتُ إلى صمْتٍ بعيدٍ يستعصي عليَّ، مرةً بعد مرّةٍ. في أرضٍ غريبة. كلمةُ «الخَلْوة» تضيءُ فسحةَ الصمت، وأنا أسترجعُ أنفاساً بهنّ عبرْتُ من فضاء الضجيجِ إلى فضاء الصمت. هذه كلمةٌ كثيراً ما قرأتها. وهي، في كل الأحوال، ظلّت مُلتبسةً عليَّ، بعيدةً، لا أبلغُ رجّ معناها.

والعلاقة معَ الكلمة لا تنطفئُ نيرانُها. هي كلمةٌ وليستْ كلمةً في آن. ليَ أن أسْعى وأضيعَ بيْن غرائب هذه الكلمة وكلمات تتضامنُ معها، في مُعجَم متصوفة عارفين. من قبلُ كنتُ مبتهجاً بقولةِ أبي نوّاس مُجيباً على من سأله: كيفَ تصنَعُ الشعر؟ فقال: «أشربُ، حتى إذا كنتُ أطيبَ ما أكون نفْساً بين الصّاحي والسّكْران، صنعتُ، وقد داخلَني النشاط وهزّتْنِي الأريحيّة». جوابٌ كان يُغويني. أبو نواس في خمّارة، وسط النُّدمان، يشرب الكأس والكأس. وفي اللحظة الضدية، لحظة المابين، الصّحو والسكْر، وعند اهتزاز الجسد، يصنعُ الأبيات، القصيدة. غوايةٌ أدركتُ معها أنني لا أعيشُ حياة أبي نواس ولا أنَا أبو نواس.

.4

لم أكن آنذاك قرأتُ عن شاعر عربيٍّ حديث كيف يكتب. قراءاتي كانتْ تنحصر في ما يصرّح به الشعراء من آراء عن الشعر والقصيدة الحرّة أو المعاصرة أو الحديثة. تعريفاتٌ نظرية عديدة كانت تُفرح رغبتي أحياناً، وأحياناً أنصرف عنها عندما تقول المبتذَل ولا تعلمني جديداً. من جهة أخرى، كنتُ بعناية أدوّن ما أقرأه لشعراء غربيّين أدمتُ التعلّم منهم، بدون كلَل، ما عليَّ أن أتعلَّمه عن التهيؤ للكتابة، عن الأوقات والأمكنة المناسبة، عن الطقوس، من ضوء وعتمة، طريقة الجلوس، الأوراق، أدوات الكتابة، قلماً أو آلة كاتبة. كنتُ أنزلُ إلى سراديبهم علّني أنْتصر على نيران تتوالَى طبقاتُها فوق عراء الصّدْر. كان ثمة جهلٌ وفي الجهل الألَمُ الذي لا يفارق ذاتاً تريد أن تعرفَ كيف عليها أن تستقبلَ كتابة القصيدة.

.5

إذن، في تلك الأرض الغريبة، الكتابة، وجدتُني أنصتُ إلى انكشاف الكلمة في صدْري. تنزل عموديّةً، ناريّةً، وليس بيننا حجابٌ. هذه الكلمةُ، الخَلوةُ، كرّرْتُ النطق بها، كما لو كنتُ أغنّي مَطلعَ أغنية لا أعرف بقية كلماتها. أنطق بها وسط صمت مفتوح على صمت. وأنا أبحث. بعد ذلك شاهدْتُ بيوتاً من بين بيوتها، في أمكنة لازمَها متصوّفةٌ مغاربةٌ في فاس ومراكش، تحت الأرض. فتح لي قائمون عليها الغطاء، فنزلت إلى العتَمة والصمت. هذه هي أمكنةُ الخَلْوة، التي سكنها مريدون في خطوتهم الأولى على الطريق.

ثم تَضاعفتْ عودتي إلى الخطاب الصوفي، إنصاتاً لمن خبروا المكانةَ والحالة. هي عودةٌ إليك، بين أهلك، كيْ أعرفكَ أيتها الكلمة عن قرب. في كتاب، أشاهدُ فيه وجْهَك، وأنت تشمّين قرنفلة على مقربة من صهريج الماء. دائماً هناك القليلُ من وجهك. تَظْهرين ولا تَظْهرين. إنكِ أخصُّ من العزلة ولكِ صورةٌ من الاعتكاف.

كتب متصوّفٌ من فاس. لكن ابن عربيّ فاجأني، بلُغته التي ليست إلاّ له، بالكلمة وضدها. الخَلْوة والجَلْوة. هذا هو ابن عربي. وهُوَ، بطريقته، يستعرضُ معجم أهْله. كلمتان لا كلمة واحدة. وأنتَ لن تقرأ بعد الآن الأولى دون الثانية. إنكَ في المابين. عليكَ أن تقرأ وتُنصت. ولا تُسرِعْ في طيّ دفّتي الكتاب. هناك، سأُغلقُ عليكَ الباب، يقول لي الكتاب. فكيف لكَ أن ترحل إليهما وتقيم، استعداداً للأمر بالكتابة؟

يبسط ابن عربيٍّ أمامي الكلمتين ويقرأ. فلا تفاضلَ بينهما. الخَلوةُ والجَلوة. وأنا أبادر إلى بيت الخلوة، كيْ أشاهدَه من جديد. وألمسَ طقوس الخلوة. في تلك النصوص، المكتوبة على شكل دفاترَ أو رسائلَ، يكتب ابن عربي عن هذا البيت، وهو يوجه الراغبين من المريدين في الخلوة: « فأما صفة البيْت المخصُوص بهذه الخَلوة، فينبغي أن يكون بكُلّ خَلوة إنْ أمكن. أنْ يكون ارتفاعهُ قدرَ قامتك، وطولُه قدْرَ سجودِك، وعرضهُ قدْرَ جلْستك. ولا يكون فيه ثُقبٌ ولا كُوّة أصْلاً، ولا يدْخلُ عليْكَ ضوءٌ رأساً. ويكون بعيداً من أصوات الناس، ويكون بابُه قصيراً، وثيقاً في غلقهِ، ولْيكُنْ في دار معمورة فيها ناسٌ، وإنْ تمكّنَ أن يبيتَ أحدٌ بقُرب باب الخلوة، فهو أحسن.» يضيف: « ومن شروط هذه الخَلوة، بل كل خَلْوة، إنْ قدَرْتَ، أنْ لا يعرفَ أحدٌ أنّك في خَلوة أصلاً». لكن ما الخَلْوة وأنت في بيتها؟ إنها «محادثة السرّ مع الحق، حيث لا ملكٌ ولا أحد.» وإن كنتَ، أيها المريدُ، من أهل الاقتدار على مشاهدة مكشوفة فلك الجَلْوة. جرّبْ وديانَها وجنانَها. جمالَ ما تشاهد. في فسحة الأمكنة التي تتقاسمها مع سواك. أليست «خروج العبد من الخَلْوة بالنعوت الإلهية»؟ جرّبْ. فيها يكون لأهل الكشف مكانُهم. وجهاً لوجهٍ، يُشاهدون كتاب الخليقة، يقرأون.

.6

إنكَ لا تُشاهد. أنتَ تكتب. الكتابة ليست مُشاهَدة. هيَ أثرٌ مكتوبٌ. ولكَ المابين. بينَ الخَلوة والجَلوة. يمكنُ لتعريف الخلوة، لتعريف مكانها وشروطها، أن يُترجمَ إلى مادية الكتابة. ذلك ما دلتني عليه الكتابة. وتلكَ سمةُ الحداثةِ أيضاً. أنْزع التعريف من حقله الماديِّ العيْنيّ، وأنقُلهُ إلى حقل مُختلف، ماديٍّ أو رمزي. هنا يتحقّقُ الانفصالُ عن التّجربةِ الصوفية التي لا تشغلُني إلا في حدود ما يحضر الجسديُّ في الكتابة. تلك القدرةُ على نقل الدلالة، من مكانها الأوّلي إلى دلالة مفارقة، مصْدرُها فعْلُ السّفر بالدلالة، عبر الكتابة ذاتِها، إلى أرض أخرى. بين بيت الخلوة وفضاء الجَلْوة، بين أن تكون في مكان مغلق أو مفتوح، في طريق، في مجلس، في خلاء، تنظر إلى وضْع الجسَد وهيئته، قريباً من المجهول، تُحادثه، يمكن للكتابة أنْ تكونَ أوْ لا تكون.

لا تفاضُلَ. وأسأل: ألا تتطلب الكتابة خَلْوة عن الآخرين حتى وأنتَ في جَلْوة معهم؟ أليست الخلوةُ هيئةَ جسدك في الكتابة؟ كيف تقول إن خلوتك مجرد خطوتك الأولى على الطريق؟ خلوتُك أخصّ من العزلة. تلك العزلة التي تستنطقُ فيها الصمتَ قائماً فيك، حاضراً معك، ناطقاً بك. إذْ أن « الصمتَ شرطٌ لازمُ، لا بدّ منه.» كما يذكر ابن عربي. صمتٌ هو الصحراءُ الباقية في الصدر، تمتد منكَ إليك. فلا تخْشَ أن ترْحلَ دون إيّاب. في مُقام أخصَّ من العزلة تكون مع الصمت، منصتاً، وأنتَ تنظرُ إلى أبي نواس، في هيئة جسده التي تقرّبه من القصيدة. فيك تلمعُ درةٌ مخلوطةُ الألوان، لا تصفو ولا تتكدّر. فتلك صفاتٌ تتحاشاهَا الكتابةُ وتنفرُ منها.

.7

لكل كتابة خلوتُهَا. إنك المريدُ الذي لا يكف عن أن يكون مريداً. لا يتعبُ. طريقك المجهول، الذي يتضاعف. من قصيدة إلى قصيدة. مجهولٌ لتقويض المعنى. دائماً تنتهي لتبدأ. ولك أنْ تفهم. الخَلْوةُ رحِمُ الكتابة. جسدٌ في عتمة وصمت يحادثُ المجهول. ومن أحبِّ الأحوال إليَّ الهذيانُ. أمجّدُه. فيه يتقوّضُ التركيبُ ويتجنبُ الطرقَ الكبرى لما نسمّيه عادة بالتعبير. الكتابة مضادة للتعبير. الخائفونَ، من تحويل الدلالات من مواقعهَا السّاكنة، يظلون مُبعَدين عن مكان الكتابة. والكتابةُ بدوْرها تظلُّ في مكان مستور في السراديب، الرّحم، تشتغل غاويَة لمن يُقبلُ عليها، صامتاً، منعزلاً، في زمن لا يقبل بمُساءلةِ المسلّمات الشعرية واللاشعرية على السواء.

أليسَ استعمال كلمة «الخَلوة» مُخيفاً بالنسبة لأولئك الذين تعوّدوا على الحديث عن الشّعر منْ مكان المعْلوم وإرضَاء الرأي العام الثقافي؟ ثم أليس تقويضُ معناها جالباً للعنة؟ ليكُنْ. إن المسألةَ هنا لا تنحصرُ في اسْتعمال كلمة يُمجّها الآخذون بأسباب التعبير، من قبَاب القصيدة التقليدية إلى أندية قصيدة النثر، كما أنها ليست في قبول أو عدم قبول التقويض. تلك مشكلةٌ تعترضُ الباحثين عنْ مواصلة المغامرة، سمعاً وطاعةً لمن يفترضونَ أنفسهمْ حاملين شعارَ ما يجوزُ وما لا يجوزُ، إسوةً بما تعوّدنا عليه في تاريخ لمْ يمض بعْد.

.8

إنها «الخَلوة». هيئةُ جسدكَ التي فيها تستقبل الكتابة. ولكَ، مرةً أخرى، أن تدركَ تاريخ هذه الكلمة. وهو ما يصعْبُ تصوُّرُهُ على ذات كاتبةٍ غير حُرة في زمننا. فنحنُ ما زلنا ندّعي، رغماً عن المعرفة، أن هناك حدوداً قبْليّةً لما يجب أنْ يكونَ ناطقاً (وغيرَ ناطق) في لغتنا باسْم الشعر أو تعريفه. على أن التأملَ، من هذا

المكان المعزول، يصبحُ ممكناً. وربما هو وحده المكانُ الذي يمنحني حريةً أحسُّها، كلما ابتعدتُ وتوجّهتُ إلى الكتابة. صحراءُ في الصّدْر أو في غرفة، ما الفرق؟

أعاينُ موتاً ليسَ موْتاً. أعاينُ حكمةً ليستْ حكمة. ومن داخل هذه الخَلوة يلوح لي وجهٌ أعرفه تماماً. أخٌ أو صديقٌ علّمتْهُ اللغةُ ألاَّ يخُون. صامتاً، منعزلاً، معزولاً من أجل الشعر، حريصاً على وديعة ينظرُ إليْها وهي تتبدّدُ بأصابع الأهْل قبْل غيرهم، رغْبةً في اكتساب مَا تتمنّع عليْه القصيدة. هل هناكَ سببٌ آخر نضيفُه حتى تتضحَ لنا حالةُ الوديعة؟ أحار. ومن الحيْرة أشتقُّ طريقَ الصمت.

.9

في غرفة غريبة، بين أرضين، في بهو المطار مثلاً، أو على رصيف ميناء، تنتفضُ الكلماتُ على تاريخها وتتبدّلُ أمامَ بصَرك، كما لو كنتَ مُشاهداً للنّوارس قادمةً من أقصى الزرقة. تنقلك إلى سماءٍ لها ألوان الطّيْف. فيها تُنصتُ إلى تجويفات صدرك، وهي تمتلئُ أصداءً لا عُمْر لَهَا. أبديّةٌ تخترقك، في كلمة الخَلوة، وأنت في الطريق إلى الكتابة. تعلَمُ جيداً أن ما يتركُ فيك أثرَهُ هو المكانُ الذي يستضيفُ جسَدَك، هو بيتُك الذي لا ثقبَ فيه ولا كُوّة. لا يدخل عليكَ فيه ضوْء، بابُه قصيرٌ ومغْلقٌ، تماماً، هنا، في هذا البيت، لا أحدَ يعرفُ أنّك في الخَلوة، تحادثُ المجْهول وأنت في انتظار الكتابة، الأمرِ بالكتابة، في عزلة عن الآخرين، مع الآخرين. فانظُرْ كيف شئتَ، واكتبْ ما نظرتْ إليه يداكْ.

القصيدةُ كعطَشٍ للحُريّة

.1

تتدحرجُ العين علَى صفحة من كتاب. جسدٌ كُرويّ من ضوء يسقط خفيفاً على الورقة، التي تقرأُ دون أن تكونَ بالضرورة لهذَا الزّمن أو الأزمنة السالفة. عينٌ وورقةٌ معاً يصطدمان ببعضهما اصطداماً أملسَ. تسمعُ أحياناً شبْهَ ارتجاج أو فقط رنّةً تعْبر الجسد بكامله، وأنت تقرأ. ما ذا تقرأ؟ تسأل اليدَ. واليد تتابع القراءة بانفعال لا يتكلم اليومَ واليومَ الذي يليه، في عُزلة هي لك. وأنت لا تتخلّى عن مَذاق اللحظات المتوالية، من أجل أن تُعطي القراءةَ مكانها المبحوث عنه، مهْما كنتَ تعودْتَ على افتقاد المفاجأة، في كلّ ما تقرأ. لكنّني اليوم أسْهَرُ مع قصائد من الشعر العربي الحديث. لا أميّز في ذلك بين المشرق والمغرب، على غرار ما ينتسب لوعْي مضى. إنّني، هُنا، ساهرٌ لألمحَ قليلاً من المستقبل في القصيدة، على الورقة، الورقات، بين دواوين وكُتب. وعيْني لا تنام. يكادُ السرّ يتسرب إلى الخلايا، بتؤدة. هناك يتجمع ويندفق. وأنا أنصتُ إليه، في قصائد متباعدة من حيث الرؤيةُ إلى اللغة والإنسان والوجود. درجَاتٌ من القصائد بألوانها القُزحية تتموّجُ في الدخيلة. وأنا أقرأ صامتاً، وبي ذلك الرنينُ الذي اجْتذبني ذاتَ سنة إلى الشعر العربي الحديث.

شوقٌ هي القراءة. وفيها أكونُ مع عَوالمَ لم تنْقطِعْ مياهُ نهرها. قصائد وأسماء عزيزة كانَ لها ما تركتْهُ منْ أثر على جسد اللغة العربية، في عصرنا. حتّى ولو كُنّا قرّرنا صمَماً لا تعبأ به حواسُّنا وهي تعيش تجربةَ وجه لوجه مع النصّ - القصيدة، في دورانها البلّوري، العاصف الذي حَاولْنا نسيانَه بحُجة لم تعُدْ حجّة. قصائد وأسماءُ على الورقات جَميعها حاضرةٌ بنشْوتها في هذه العُزلة، حيث الزمن يطوف فلاَ يعثُر على غيْر القصيدة. فما هَذه اللمعةُ التي تتنامَى في حضن القصيدة؟ وبأي عين أرَى إليك؟ أتركُ يدي تَضيعُ والعيْنَ تتعرّى شهوتُها. أقرأ وأعيدُ، لعلّ اللمعةَ تتضحُ أكثر في هذه العُزلة.

عيْني لا تكْذبُ، وأنا بدوري أتابعُ العيْن ولا أكذّبها. أسمع الكلمات خارجةً من مَنابع الجسد بكامله، على امتداد قَرن أو يزيد. وفي كل لحظة أحاول أنْ أتأكدَ، فلا تُمانع القصائد. يمكن لي أن أعيد القراءةَ والقراءةَ حتى لا نهاية للقراءة. الوقتُ ليس محصوراً. وما بيني وبين العالم يتجدّد في القصائد وبها. كيْفَ لي أنْ أختزلَ كلَّ هذا الدفق المتجدّد وهو يَسْري في الخلايا؟ هناك دائماً ما هوَ أوسعُ من الزمن الأحاديِّ في القراءة، حيث الشاعرُ يعيش زمنيْن: زمنَهُ الشّخْصيّ وزمَنَ القصيدة. في الأوّل يكون مُحدّداً بعُمْر صاحبه، وفي الثاني يشْرَعُ الزمَنُ الحقيقي في خلق القصيدة حدثاً، في اللغة والثقافة والحياة. زمنَان يتآخيان، بل ربما كانَ الزمنُ الثاني هو الزمن الحقيقي بالنّسبة للقصيدة، أيّ قصيدة.

.2

أحسّ بجسدي خفيفاً. يفلت من بين أصابعي. وذلك التعبُ، الذي كان يستولي عليّ، يتحلّلُ شيئاً فشيئاً ليصبحَ الجسدُ والقصيدة مُنفرديْن على صَفحة من ديوان أو كتاب. أحياناً أنسَى العوامل الخارجيّة التي الْتبسَتْ بها القصيدة وأحياناً تعودُ في تركيب عجيب. وفي الحاليْن معاً تَنبثقُ القصيدةُ فضاءاً يقظاً لأنها قادرةٌ

على أن تهبَكَ ما لمْ تهبْك من قبل. تُنْسيك القصيدةُ وتَسْبيك. قصائد من بلاد عربية متباعدة، ولكنها في القراءة تحوّلتْ إلى لحظة شعريّة لا تخْشَى اخْتلافاتها، بحسب الشعراء. كلُّ واحد منهم وضَع بصْمَتهُ على اللّغة ومضَى ليبْقَى ما يجبُ أن يبْقَى.

تلك القصائد تحيطُ بي. وأنا القارئُ في هذَا الزّمن تخلّصُني القصائد من الزّمن، لا تنكّراً بل تحرّراً. صورةٌ تترسخ في الذاكرة، وجُمْلة تتسع في مداها الشخصيّ. كل ذلك منْ سرّ القصيدة. هلْ أقول: لماذا تُصبح القصيدةُ يقظةً أكثر مما كانَتْ أوْ أعنفَ مما كانت؟ هذه الإحْساسات المداهمة تهمّني بصفتي قارئاً يتلعْثَمُ كلّ مرة وهو يُقْدم على إعادة القراءة، خاصة عندما يتعلّق الأمر بقصائد لها وقْعٌ مَا في الحساسية أو في الذاكرة. قد لا أجرؤُ على التّصريح بالانْقلابات المفاجئَة، ولكنّي لنْ أكذّب ما يُعلنه جسدي، أمام عيْني الشاهدة عليَّ في القراءة.

ثمة لحظةٌ أولى مشمولةٌ بالتّعب. وفي لْمح البصر لا يبْقَى سوى العينِ والورقة. إنّني مخلصٌ لهذه القصائد. وأنا أقرأها بغيْر هدف يخرجُ على القراءة التي يتطلبها سؤالٌ لا يتوقّف عن الشعر في زمننا، عربياً وكونياً، وأيضاً عن قوة الشعر في هذه اللغة العربية التي لم تستسلم للموت، بعْد. عجوزٌ تتجدّد طفولتُها. جمرةُ الشعر فيها هي جمرةُ اللاّنهاية. وأنا بفعل القراءة لا أريدُ إضافَة أو نزعَ شيءٍ ما، بقدر ما أريد أن أجرّب حدودَ اللانهائيّ، وهو يَنْتقل من زمن إلى زمن، متخلصاً من أعباء الأحكام النقدية والإيديولوجية والجمالية السائدة، في زمن الكتابة، متخلّصاً من ضجيج لا تُطيقه القصيدة.

.3

لهذه اللحظة بهاؤُها. وأنا أقرأ ما كان يخْتفي من قبلُ علَى جسد القصيدة. لا أجد أجْملَ من تسميته بالحريّة. إن بُلوغ مرتبة تسمية ذلك بالحريّة غبطةٌ في حد

ذاتها. قصيدةٌ عربيةٌ حديثةٌ قاومت شراسةً كانت تهبّ من مختلف الجهات لتمْنَع عن القصيدة مُستقبلَها. إنّك وأنتَ تقرأ صامتاً، من الليل إلى الليل، تَرى المختفي يصبحُ صديقاً يقترب منك، ينحشر في أنفاسكَ، يذوب في حركات أصابعك. الحرية تتلألأ، تنقُر الباب، تهبّ عليك منْ جبال ووديان وشعاب وأدغال، أحياناً باسْم وحيد متوحّد هو الحرية.

هل أخطأتُ في الإنصات؟ أسألُ نفسي وأنا أغْشَى مناطقَ عزيزة من الصمت. تنظرالقصيدة إلى وجهي، وبين أصابعي تندسّ لتهمز الصمتَ وتتقدم ثانيةً برنينها. الحرية. عندها أتأكّد مما أرىَ ومما أنصت إليه، في القصيدة، وقد تجرأتُ قليلاً فلم أهتمّ بغيرها. هي بالضّبط. ما دمتُ تخلّصْتُ من ضجيج يؤرّقُ القصيدة، مثلما يؤرّقني، أنا الآخر، المسافرُ في القصيدة إلى القصيدة. وعمّا قليل سألمسُ ذلك المبهَم يتلألأ خارجاً منْ ضجيج ومن رمَاد، كأنه يولَد للمرة الأولى. وهي ليسَت أولَى تماماً، إلا بقدر ما أقبلُ عليها منْحازاً إلى الصّموت الذي رحَل صامتاً، رغم عوائق الرحيل.

وليست هذه الحريةُ اعتباطاً. فالقصيدة، وهي تتراءَى في مرتبتها الخالصة، مندفعةٌ نحو التجاوبات القُصْوى مع تاريخ شعريٍّ ومع مستقبل شعري أيضاً. لو كان الأمرُ اعتباطاً لما اكتمل شيءٌ يتلألأ وجهاً لوجه مع القصيدة. أعْني مع ما يشكّلها ككائن له من تاريخه الشعري ما يتركُه وحيداً بدون استنجاد بغيره. أقصد العواملَ التي عادة ما تختزلُ القصيدةَ إلى غيْر ذاتها، فيما أنا لا أرى سوى القصيدة منطويةً على ذاتها، متكوّمة في فَراغ الزّمن الذي لا هُو الماضي ولا هُو الحاضر، بل زمنُ القصيدة وحدهُ، عارياً مما نتوهّم أنه حقيقتُها.

4.

إذن، ها هي القصيدةُ العربية الحديثة، وقد اندرجَتْ ضمن سياقها الشعري، إنسانياً، أقول، بدون مبالغة. وفيها أتعرّف على ما جعَل منْها قصيدةً للعصر

الحديث. لا التاريخ، ولا الجغرافيا. لا المناهجُ النقدية ولا الضغوطات السياسية. كلّ ذلك منزوعٌ عنْ جَسدها، وهي تنبثقُ في القراءة منْ سديمها، كما لو كانت للمرة الأولى تُولَد لا على يد قراءة مُولّدة، بل على يد حريتها. دافعت القصيدةُ، بشجاعة، عن حريتها لينبع الكلام مُجدّداً من أصله اللاّنهائي. هل هيَ سنابلُ أم شُعَل؟ من الأفضل تجنّب مثل هذه الاستعارات والاكتفاء بالقصيدة، بما هي قصيدة على الدوام، باعثةً على اسْتشعَار خطُورة ما تفعله في اللغة وفي الإنسان معاً.

ذلك الهدفُ، الذي أصبحَ أمامي مُترائياً، ليَ الحقُّ في التعامل معهُ بحذر. لا أحدَ يمنعُني من ذلك الإحساس في عُزلتي بما تهبه القصيدة للغة العربية وللكلام البشريّ على السواء. فالمسألةُ الشعريةُ في زمننا لم تعُدْ تُقاس بوفائها أو عدمه لنمُوذج سابق بمفرده، ولكنها تُقاس بهذه القُدْرة على الانْدراج في زمن موسّع للقصيدة في عصرها، الذي هو كونيٌّ أساساً. وهي تعْلَم أن ذلك لا يكونُ ممكناً عندما تتنكّر لماضيها أو تتنكّر لمستقْبلها. تُوجَد القصيدةُ فيهما معاً، ومنهما تنشأ الحرية.

تتلألأ الحالةُ في وقت منْ صمت، وفي وقت تتعاظم محاكمةُ القصيدة لأنها تتمنّع عن الاستجابة لرغَبات طائشة ومُستعْجَلة. طائشةٌ لأنها لا تستوعبُ معْنَى الشعر، ومستعجَلةٌ لأنها تريد لمَا تخلّصَتْ منه القصيدةُ أن يعود ثانية. فلا هي هذَا ولا هيَ ذاك. القصيدةُ هي نفسُها، عزلاءُ في مسَار شعريٍّ نتخيّل بدايتَهُ ولانعثر عليها إلا أسطورةً، ونتنبّأ بنهايته فلا تُسعفنا غير التكنولوجيا. علينا أن نرسّخ أسطورةَ البداية، لكن التكنولوجيا لا شأنَ لها بمصير القصيدة، مهما علاَ صوتُ الناطقين بها في زمننا.

.5

مَنْ يستطيعُ أن يتخيّل معنى الحرية؟ سؤال مُحْرِج حتماً، لأن كل تحديد للحرية لا يتكافأ مع شساعة معناها. وفي القصيدة يبرزُ السؤالُ عن المقاصد فإذا بالجواب أبعد مما نتوقع. ذلك فضلُ القصيدة على السؤال، حيث الجوابُ يبهتُ كلما اخترقْنا مسافةً من القصيدة وشرعْنا في قطع مَسافة موالية. القصيدةُ والذاتُ، القصيدةُ واللغة، القصيدةُ والزمنُ، القصيدةُ والمتخيلُ الفردي أو الجماعي، القصيدةُ والوجود. هل هذه مسافات خاضعة للقياس؟ لو عثَر أحدٌ على الجواب لكان ساذجاً لأنه لن يجدَ سوى عظام تُحوّل الخطاب عنْ مَساره، وإلى الهاوية تلقي به دفعةً واحدة.

سِيّانَ أن تقيس بملْعقَة القهوة، أو بالميتر، أو بالموازين المعدة للأحْجَام الضّخمة. هذه كلّها تفتقد حُرية القصيدة. والشيء نفسهُ ينطبقُ على المناهج النقدية التي تنوّعَت في عَصْرنا إلى حدّ الذهول. إن ذلكَ لعبثٌ، كلما حاولنا أن نُخضع اللانهائيَّ إلى النهائي. القصيدةُ لا نهائيٌّ. وما يجعلُها كذلك هو قوة حُريتها التي لم نَقسْها إلا ظرفياً، وبمنطق غالباً ما كان محصُوراً في استجابات فورية لهذه القيمة أو لتلك، جمالياً أو إيديولوجياً أو عقائدياً مع اعتبار ما يمكن لهذه الكلمات أن تستوعبَهُ من حالات التحديد والإدراك. وأنا، الليلةَ، بريءٌ من كلّ هذه المعايير المجْحفة في حق قصيدة عربية وفي حقّ شاعر من المشرق أو من المغرب، ينتمي لهذه الحركة أو تلك.

ما يبعثُ على موقف كهذا هُو القصيدةُ نفسُها. لا أجتلبُ من خارجها معياراً. أبتعدُ عن ترّهات هي في النهاية كسَرٌ من كلام باطل، برأيي. فنحن، مهْما كُنا حاذقين، لا نستطيعُ أن ندّعي معرفةَ القصيدة منْ جميع أضلاعها، وهي اللانهائيةُ، النافرة، الجسورة، المتكتمة، الصامتة. كيف يمكن لي أن أضبطَ هذا الكائن الناريَّ ضمْنَ قوالبَ لا تصلحُ إلا للْعابر؟

ألا يدعونا اللانهائيُّ إلى التواضع في حضرة القصيدة، التي لا نعرفُها مهما تَباهيْنا بالنقيض؟ أستغرق في قراءة قصيدة غير مشهورة. ومعَ الاستغراق أحسّ بأن عليّ إعادةَ تربية جسدي حتى يستحقّ وضْعَ القدَم على العتَبة. قد تكون القصيدةُ ليبيّةً أو سودانيّةً أو يمنيّةً أو مغربية. نماذجُ لقصائد غير مشهورة. وفي ذلك ما يدفعني إلى التّحرر من سَطْوة النقد الذي منَعني من رؤية اللاّنهائي. أصارعُ ما ترسّب في ذاكرتي من قيم لأبلغَ اللانهائي في القصيدة العربية الحديثة وفي حريتها التي لا نراها، لأن مُتخيّلَنا هو سببُ عدم الرؤية.

.6

اتساعُ جغرافية القصيدة العربية الحديثة(والقديمة) مقدمةٌ مفيدةٌ لطرح السؤال عن مُتخيلنا الذي قرأنا به هذه القصيدة. ثم تتسع المسألةُ أكثر كلما اقتربنا من فعْل الحرية الذي عاشت القصيدة تجربةَ ترسيخه وحيدةً وصامتة، بل ومتألمة من عدم تلاؤُم المتخيّل مع ما يحدُث فيها وفينا. هذه القصيدة تتحدّى منطق الوطنيات المريض، كما تتحدّى منطق المَعارف التي تُلغى القصيدة، بكل اختصار. هل ستظل القصيدةُ طريدةَ ما ليس قصيدة؟ وهل ستظل القصيدةُ تعبيراً آنيا؟ لنترك هذين السؤالين يسكُناننا، دون تعجّل في إعطاء الجواب. فنحن ولُوعُون بالأجْوبة السريعة التي تتحول إلى عَرضَ لِما ليْس شعراً أو كتابة.

.7

عطشُ الحرية في القصيدة متأصّل. إنه جَوْهرُهَا الذي لا وجودَ لها إلا به. عطشٌ يبينُ ولا يبين. وعندما نسترجعُ القصيدة العربية الحديثةَ بتنوعها وتعددها، من ذات إلى ذات، ومن مكان إلى مكان، في عصرنا الحديث، نَرى إلَى أيّ حدٍّ كانت القراءةُ محكومةً بقيم غيْر شعرية وهي تُحاول الاقترابَ منْها أو تتجاهلُها

في برودة الجبال والأودية والشعاب. وها نحنُ الآن لا نشاهدُ نسيان المتعدد فقط، بل إلغاءَ فعْل القصيدة في الثّقافة العربية الحديثة، مُتباهين بالأوضاع التي لا شأنَ للقصيدة بها.

الحريةُ، التي لازمتها القصيدة، لا نعثرُ عليها إلا في القصيدة. وتلك معرفةٌ لنا أن نبحثَ عنها بصمت النّاسكين، في عتمة الليلة والليلة. هناك يُمكننا الكشفُ عن معنى الحرية اللانهائية التي قادت القصيدة نحْو ما هيَ اليوم عليْه، وشْماً محفوراً على جسد ثقافيّ وعلى جسَد لغة. وتلك مهمةٌ تُغري القارئ وهو يبتعد عن الأحكام الطائشة التي تعْبثُ بقصيدة وثقافة. إنّ هذا الكشف لا ينتسبُ إلى ضرُورة أخلاقية تُقاوم بها القصيدةُ ما ينزعُ عنْها فعْلَها. لا. هذا الكشفُ هُو، قبل كل شيء، ارتفاعٌ بالقضايا إلى مستوى فكريٍّ، به نقدر أن نعيدَ قراءة ما لم نكن نستطيع بلوغه سابقاً.

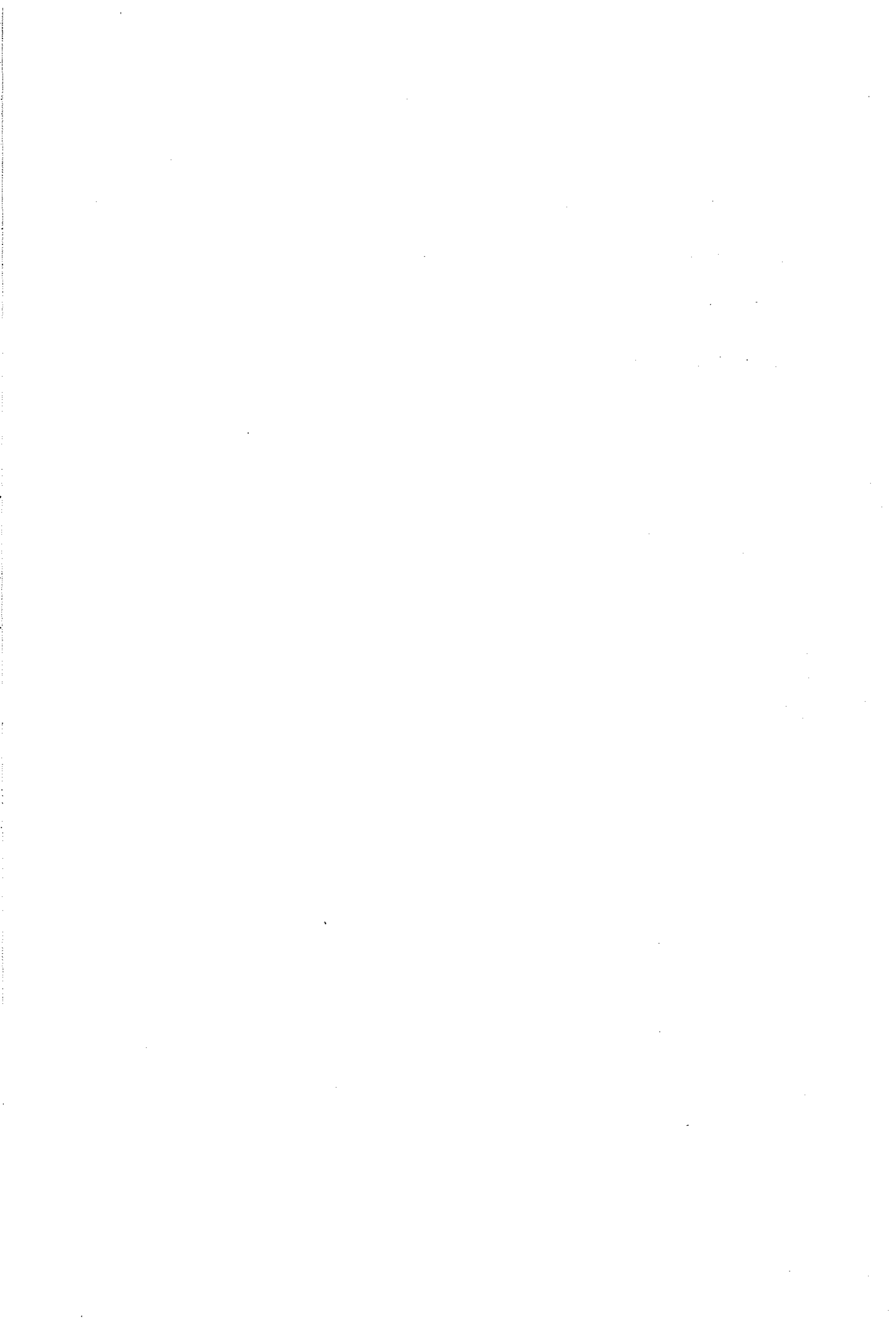
بهذا المعنى سنقترب مُجدداً من حُمّى العطَش التي بها افْتُتنت القصيدة العربية، وبها انفتحتْ على مغامرة لا تزال أسرارُها تحت الطّبقات المسموح بها في القراءة الاعتيادية. ومهْما قلّ النصيرُ، فإن تلك الحرية لا تغادر مكانَها. هي في القصيدة مثبتةٌ حتى ولو كان الإصرارُ على إلغائها أقْوى منْ نداء الحرية فيها. ذلك هو سرّ العطَش في الكتابة.

8.

لمَ أقدمتُ على تَسْجيل هذه الملاحظة، في هذا اليوم؟ ألأنني قضيتُ ليلةً سعيدةً مع حرية القصيدة في الشعر العربي الحديث؟ لاَ جوابَ يُقنعني. نعم، كنتُ صاحبتُ فعل الحرية في هذه القصيدة منذ فترة شبه طويلة، كما أنّ مظاهر الإلغاء التي نقرأها لَنْ تتوقف تأكيداً. كل ذلك بديهيّ. وكلما عاودتُ التأملَ وجدتُني سعيداً بما أرافقه. عيناي تتلألآن من شدة هذا العطش، الذي وحده الناطقُ في

القصيدة. نشيدُ القصيدة يتدفق والقراءةُ تتدفق.

يحْسُن تجنّب منْطق الدفاع عن القصيدة وعطش الحرية. هل أريدُ أكثر؟ ألا يكفي أن أجد شيئاً وأن أكون به سعيداً؟ في تكْرار السؤال شيءٌ من الممانعة وشيءٌ من الكبرياء. هي ليلةٌ من الليلات الصامتة، فيها يكون الشعرُ أخَ الحرية. لا بيَد تدْمي، بل بيد راقصة، في هواء خفيف يسْكُن الجبال والأودية والشعاب. هواءٌ يسْكُنني. بيني وبين القصيدة، وهي تعيد تأملَ تاريخها في الأثر، الذي لا تمحُوه عواصفُ منْ غيَاب البَصيرة والتأمّل.



كَأنّه التّعَب

.1

ذلك ما كانت تُعلنه الأوقات المتلاحقة في الجسد. ربما قدُم العهدُ بها. ربما كانت هناك كامنةً مع الميلاد البعيد. لا أعرفُ بالضبط، لكن الجسدَ كلّ مرة يعود ليذَكّر. كأنّه التعب. في النوم، الوسَن، كانت الأعضاءُ تذهب وتجيء. يصعب أن تفهم. ثمة ما يُفلت من التحديد. في الجسد، الذي أصبحتَ تُحسه في كل حركة. لا تتأوهُ. إنه الذي يلازمك وهو لاَ يحتاج إلى تصريح متكرّر. هُو هناك وأنتَ وإيّاهُ تتبادلان الكلمات.

مَا الّذي أصابَ الجسَد؟ تهمسُ في كلماتكَ التي أصبحتْ تكرر عليكَ الجملةَ ذاتها. ألستَ تفكّر بالجسد؟ بين السؤال والتفكير ما يُخرج الجسَد عن صمته. كان الصباح. وكان المساء. والحالة هي ذاتُها. لا يتغير الإحساس بما أصبح يتملّكُ الجسد، جالساً، ماشياً، متمدداً، متكئاً، مائلاً، متكوّماً، مسرعاً. أشكال أراها تتوالى في انقلاب الجسَد على نفسه. وأنا هناك. أنصتُ لمَا يبدأ. مَا يستعيدُ

البدايةَ ويتخلّى عن الأنين. فقط هواءٌ ساخنٌ يمر بين الأعضاء. وفي الهواء صورةٌ معلقةٌ لما تحس.

.2

لو كنتُ أستطيع النفاذ إلى الزمن الذي جاء منه الجسد، لو تعلمتُ في كتاب أو مدرسة كيفَ أفتح الجلدَ وما بعدَ الجلد لأستطلعَ الحالة في طبقاتها. ولكن ذلك فات. عليّ أن أنسى كلّ ما يُساورني في صيغة تمنّيات. لا ينفع التعاملُ مع التعب بمثل الكلمات الاعتيادية في ضبط الحالة. التعبُ. لأجل ذلك بدا لي أن العبارة الأقربَ إلى ما لا أعرفُ هي: كأنّه التّعب. فأنا ألاحظُ، أحس الوقت والوقت المقابلَ. والزمن الذي تعودتُ أن يطول هو مجرّدُ زمن يمتد متقطّعاً. شيء من الحيرة كلما أرغمتني الأعضاءُ على الاستراحة. تلك هي الأيامُ التي كان التعبُ فيها يغادر الجسدَ ويتركُني خفيفاً.

لا أعني أنني أعْبُر الجحيم. لا. أبداً. هو المساء مرة، هو الصباح. منتصفُ النهار. هو الوقت الذي يمتدّ في الجسد قبل أن يمتدّ في الأيام. كان عليَّ دائماً أن أحافظ على المُراقبة. هو وأنا. أسيرُ جنْبَه أو يسيرُ جنْبي. لا أحدَ يفارق الآخر. كنتُ أتعجب من جسد لا يفارق صاحبَه. نتكلم في أمور العافية. والقُدرة. والتحمّل. واللعب. وأنا متغافلٌ عن الذي يحدث في الأوقات الممتدّة حتى لا تتوقف عند لحظة معلومة. ما تعرف هو أن التعبَ ينتقل من وقت إلى وقت، ولكَ ما لا تدركُ من إحساس بأن هذا الذي يصاحبكَ غريبٌ عنكَ وهو معك لن يتركَكَ ولن ينساك.

الليلُ. ربما. كنتُ أفضّل الليلَ لأنه وقت فارغٌ. يمكن أن تتعبَ في الليل. بعد أن تغيبَ الشمس وتُوقَد الأضواءُ وتعودَ أنت للبيت. التعب. لن تُعاتبه. كان لك الوقتُ الطويل على هيئة كلمة طويلة. يومٌ طويل. نطقْتَ الكلمةَ التي استدعتْها الساعاتُ المتلاحقةُ للنهار. ثم الليل. والتعبُ. يمكن أن يكونَ الحديثُ مع التعب

حديثَ صديق لصديق، حديثَ جار لجار كما عشْنا ذلك في الطفولة. لكن الصباح. والزوال. والعصر. والتعب. شيءٌ يستدعي الحديثَ صراحةً مع الجسد الذي يرافقك. جنباً إلى جنب. يسيرُ معك.

.3

لم أفكر في كل ذلك هذه المرة. هو معي. وأنا أكتبُ: كأنه التعب. هل هناك حَيرةٌ أوسعُ من هذا الحيرة ؟ أستغرب من كون التّعب يُصبح موضوعاً للكلمات. التعب يبحث عن الكلمات التي تلائمه. والكلماتُ تتردد في الحضور. كلمات في جملة. والجُمَل تصمتُ حيناً. وتتخلّى عنكَ حيناً. ما العيب ؟ أليس الجسَد هو الذي يكتب؟ أليس الجسد هو الذي يفكر؟ انتهى ذلك العهدُ الذي علّمونا فيه أن الكلمات تأتي من الكلمات وحدها. وأن الكلمات كلها مخزونة في الذهن، وأنها بطريقة إرادية تعلن من طرف الكاتب عن نفسها. أوْ علّمونا ما جعلنا نتأوّه. بل الأكثرُ أنهم علّمونا أن الكلمات تدلّ على صاحبها. قالوا إن للكلمات صاحباً. هو مالكُها ومُعتقلُها وسيّدُها. كل ذلك يبدو لي غيرَ متطابق مع التعب وكَلمات التعب. وأنا أفضّل، على عادتي، أن أتبع التأملَ من هذه الزاوية.

التفضيلُ ليس الكلمةَ المناسبة. من الأحسن قوْلُ إنه اختيار. لنا أن نختار عندما نصبحُ قادرين على الاختيار. أحسّ هذا التعب يجري في العروق. يندفع بهدوء في أَلْياف العضلاَت وفي منافذ الأعضاء. يجري ويندفع جريانَ واندفاعَ الدّبيب. دبيبٌ ووخزاتٌ حادة مرة بعد مرة. هل أجلس؟ أسأل نفسي. أجلس إذن. آخذ مقعداً وأجلس. أبحث عن عتبة في شارع وأجلس. يعنيني أن أستمعَ إلى هذا الذي يُصاحبني. هو الأقرب إليّ من سواه. هو يعرف هذا المرضَ وأنا أعرف. هو وأنا. في الطريق التي نقطعها. والعمل. والتنقّلات. يُمكن أن أنصت إلى جسدي كلما وفَد عليه التعب. هذا منْ حق التّعب. وأنا أفكر في التعب بالتّعب نفسه.

لمدة طويلة كان التعبُ يلازمني. وكُل مرة كنت أتجرّأُ على التعبير عنه. كنت أفكر في معنى الزمن. منذ خمسين سنة، في مدينة عربية قديمة هي فاس. عمارةٌ تعود لقرون. الآذان في أوقات الصلاة. الأعياد. والأسواق. والأغاني. والبخُور. والسحاب. عهدٌ كان الفونوغراف يجْمع حوله أمّةً وهي تسمع مطرباً قادماً من بعيد. ثم الذي تلا الفونوغراف. وما أصبح عليه الجسدُ في مدن بعمارتها الأروبية. ووسائل النقل الحديثة. والسنوات التي تطول ككلمة طويلة. لأن التعبَ من هنا كان يصعدُ نحوي. شيئاً فشيئاً كان يظهر. يطول. خيوطٌ من الألم. دوخةٌ. وارتطامٌ فوق الأرض. كان التعبُ ينفذ إلى الجسد وأنا لا أفهمُ كيف يتكاثر سنةً بعد سنة.

.4

عندما كنتُ أصرح لصديق بالتعب كان يُعاتبني. كيف يُصيبكَ التعبُ يَا السّي محمد؟ وأصمتُ. المظهر لا يُخبر عن التعب. وأنا بين أن أتكلم لغة جسدي وبين أن أتكلمَ لغة الآخرين. نعم. تربّيتُ على أن أتكلم لغةَ الآخرين. أتكلم الكلمات التي توجد محفوظة في مناديل مطرّزة. العيب. الحْشُومة. مَا شِي صْوَابْ. والتعب الذي يكبرُ لا يحشم. إنه في جسدي. وأنا بمجرد ما أبدأ النطقَ بلغة جسدي ينْهرني صديقٌ وصديق. خلاص. آ السّي محمد. وأتعفّف. أحْشم. أتْبع قواعدَ الكلمات المحفوظة في مناديل مطرزة. كذلك قالوا لنا عندما أقبلوا على إعطائنا الدروس الأولى في التربية. أن نكونَ منضبطين للقواعد الاجتماعية في مجتمع سهِرَ على انتقاء القواعد بعناية الحكَماء. همُ الذين أمروا بتطريز المناديل وحفْظ الكلمات فيها. كنتُ مثل غيري أهـزّ رأسي هزةً خفيفة معبراً عن انصياعي للكلمات ولما يجب أن ننطقَ به كلما واجهتُ ما يستدعي الاحتياطَ من قول ما لا يتطابق والكلمات المحفوظة في المناديل المطرزة. العيب. الحْشُومة. مَا شِي صْوَاب. لي أن أتحاشَى ما لا توافق عليه القواعدُ السابقةُ على جسدي في الوجود. كمْ عُمر

هذه القواعد؟ سألتُ مرةً نفسي. لمْ أتعامل مع السؤال باستخفاف. كنت أريد أن أعرف تاريخَ الكلمات، وكنت أريد أن أفهمَ دلالتها. تاريخُ ودلالةُ كلمات تسنّ لي قواعدَ كلام لي أنا الذي يعيش في زمن، وأنا الذي لجسَدي قواعدُه.

.5

بماذا يمكن أن يوصفَ شخصٌ لا يحترم قواعدَ الكلام؟ بخُدش الحياء؟ بالمسّ بالأخلاق العامة؟ بالزندقة؟ كذلك بدأ العهدُ الرومانسي العربيّ. عدمُ مُجاراة الكلمات المحفوظة في المناديل المطرزة. كان الرومانسيون العرب يصرّون على خدْش الحيّاء والمسّ بالأخلاق العامة. إنهم أولئك الذين كان لهمْ مع القواعد معارك. كانوا مُشاكسين ثم تحوّلوا إلى مُناوئين، محاربين لقواعد الحياء وقواعد الأخلاق العامة. وأنا كنتُ أريد أن أعرف تاريخ القواعد ودلالتها. أقصدُ أن أعثرَ لها على بداية. فهي ليستْ مفارقةً للتاريخ. ولا سابقةً على التاريخ. إنّني أعيش في التاريخ. ومن حقي أن أعرف. وبعد أن أعرفَ من حقي أن أعلنَ بدايةَ تاريخ مختلف لقواعد مختلفة. التعبُ. التصريحُ بالتعب. خلَاصْ. التّعب. هذا لا يُـقال. لا حياءَ لمن يتحدث عن التّعب. نحنُ جئْنا من أجل ألاّ نتعب. وألاّ نتعبَ لا يسمح بالتعب. ولا بالتصريح بالتعب. التعبُ يُبْطل اللاّتعب. والتصريحُ بالتعب يفسدُ العقول. أنت تبالغُ. التعب. التعب.

كنت أستحْيي. عليّ أن احترمَ ما اختاروه لأنفسهم ولنفْسي. أنا منْهُم وهُمْ منّي. هذه هي القاعدة الأولى التي عليّ احترامُها. وفي احترامي لها احترامٌ للقواعد اللاحقة. هكذا أكون محبوباً. مقرّباً من الوُجهاء. نموذجَ المطيع. الممتثـل. هنا مكارمُ الأخلاق. والشرفُ. والسموُّ الذي لا سموَّ بعده. وأنا لي هذا التعب. الحياءُ لا ينفع مع جسد يبحث عن لغته. يتدرب عليها. إنه يتدرب على التفكير بالجسد. وتلك محْنتي.

.6

لا أسميها محنة إلا لأنني مُلزَمٌ بالمرور عبْر تجربة مُواجهة القواعد. وتلك كانت تجربةُ الرومانسيين. وبعد الرومانسيين كان المعاصرُون بمختلف تياراتـهم يُمعنون في مخالفة القواعـد، قواعد عدم التصريح بما يخدش الحياء. والتعبُ الذي يبقى ناطقاً في الكلمات هو التعب الذي يرفضُ القواعد. إنني ابن الثقافة الحديثة قبل أن أكون ابنَ مدينة أو بلد أو قـواعـد. إذا كنتُ وُلدتُ ذات يوم على يـد القواعد فأنا يمكنني أنْ أولدَ مرة ثانية وثالثة ومرات لا حدّ لعدَدها. لا شيءَ يمنعني من الحقّ في الميلاد المتعدد، لا القواعد ولا المحافظون على القواعد.

أدركُ الأمر. وأعملُ من أجل أن يكون موقفي علنياً. وهو لا يخدشُ حياءَ أحد ولا يمسّ بالأخلاق العامة. شخصٌ له جسدٌ يكلمه. وبجسده يفكّـر. ما العيب في قول كهذا؟ ثم إن كلامَ الجسد لصاحب الجسد هو كلامُ التّعب. ليس كلاماً عن التعب فقط. الأعضاء، التي لم تعد تحسّ أنها أعضاء، تعيش ما يصيبها من تعب. في النـهار. في منتصف النهار. بل في الفجر. أو في العصر. أوقاتٌ بعيدة عن الليل، ولا شيءَ يبدو جاء وضغَط عليها. لا. هيَ في حالة تعب.

التعبُ والنطقُ بالتعب متلازمان في حياة يومية لا تتأخّرُ عن التّشطيب على الكلمات الفاسدة. ولكَ من التعب الأعوامُ. ليس في جمع عام بالأعوام ما يتحول إلى بلاغة. أعوامٌ محصورة في عمر الجسد. لن تكون ألفَ (أو ألفَ ألفِ) عام كما يحلو لشعراءَ أن يتباهوا فيما بينهم بالعمر الذي عاشوه. كلنا يعرف أن الشاعر يعيش أكثر من عُمْر جسده. وتلك حالة لا نفطن إليها. كنت أحدّث نفسي، لأن صديقي أصرّ على احترام قواعد الكلام. عليَّ أن أحترم القواعدَ، التي تمنع التصريحَ بالتعب، في وقت يختار الجسدُ أن يكون وقت التصريح، هذا غير مسموح. أخبرني صديقي بذلك عبر الهاتف النقال، وأنا أسند ظهري إلى زجاج نافذة القطار. فقط التصريح. حتى التصريحُ وبدون شكوى لا تسمح به القواعد!

لك أن تختار، قال لي. وأغلق الهاتف بانفعال.

.7

الرومانسيّون، نبلاءُ الرفض في العصر الحديث. ومَنْ يذْكرهم اليوم؟ أوْ كيف نذْكرهم؟ لك أن تضحكَ من هذا الزمن. بلادٌ عربية بكاملها نسيت الرومانسيين بدعْوى التجاوز، بدعْوى البدْعَة، بدعوى عدَم احترام القواعد والأصول. هي محاكمة خفيَّة في كلمات. وننسى أن نفكرَ من جديد في هذه القضية كما في قضايا أخرى كتمْنَاها التزاماً باحترام قواعد الحياء والحشمة. اللاحقُون على الرومانسيين فرضوا بدورهم قواعدَ تحظر الكلام عليهم. عندما أتأمل نبلاء الرفْض، هؤلاء، أجد أنهم أولُ مَنْ جعلَ من التصريح بالمرض مبدأ شعرياً. مرض متعدد الدلالة. طبعاً، هناك مرضُ الجسد. الجسد الرومانسي، العاشق، الغريب، جسدٌ مريض. ولهذا المرض علامات كما له صوَرٌ وفضاء. عالم الرومانسي هو المرض قبل الطبيعة، الغاب. مرَضٌ يقابل فحولة الشاعر التقليديّ وبطولتَه.

ذلك الرومانسي، نبيلُ الرفض، بصوته الخفوت، ومرضه، هو الذي علّمني الحقّ في كلمة التعب. كنتُ عندها أبحثُ في أعمال شعرية وفلسفية حديثة عن التصريح بالمرض، الذي يبلغ الجنون. الرومانسيُّ هو نفسه الذي صرّح بجنونه وقدس الجنون. مريض. هذا النبيل الرومانسي، الذي ننساه اليوم احتراماً لقواعد الكلام. خطاباتٌ جاهزة لمنع الحديث عن الرومانسيين. ولا ريبَ. من يتحدث اليوم عن الرومانسيين العرب لن يكون إلا مريضاً يتفحص أحوال مرضاه. هو وإياهم لا بدّ أن يكونوا نزلاءَ مسْتشفيات. مرضى. هناك يجب أن يكُونوا.

.8

مريضٌ بالتّعب. وأولئك مرضًى. القلبُ هو العضو الأكثر ذكْراً في كتابات

الرومانسيين. قلبٌ مريض. وعندما نعيد قراءتهم في ضوء المرض نكتشف من جديد توبّوغْـرافيا مَرضهم، الذي هو بالإجمال متشابه. لا يكاد يختلف أحدُهم عن الآخر. الأرقُ. مرضٌ قريب منْ مَرض القلب. ثـم التعب. تعبي. لستُ رومانسياً ولكن الرومانسيين من شجرة العائلة. تلك الشجرة التي أجهلُ جذورَها وإلى أين تمتد أغصانُها. هي التي هناك، شجرة السلالة الشعرية. وأنا أحيّي منها في تعبي هؤلاء الرومانسيين، نُبلاء الرفض، الذين لم يعد أحدٌ منا يتذكّرهـم بما هـمْ أهلٌ له عند ذكر الشعر الحديث. لكن المرض، عند الرومانسيين، تجربة، لا يعيشها الأصحاء. تجربة الجنون، كما عند نرڤال، مثلاً، كشفٌ عن ضوْءٍ جديد. والمرضُ، عند الرومانسي، ليس علامة على ضعْف بل دعوةٌ إلى الحياة والتشبث بالحياة أو هو صحةٌ عليا، «صحّة عظيمة» كما مجّدها نيتشه. ولي هناك، صديقي أبو القاسم الشابي، المريض بتضخم القلب. ألم يكن مرضُه علامة على الأغنية، القصيدة، أغاني الحياة؟

.9

ربما كان ذلك مقصوداً. هذا الحديثُ عن الرومانسيين العرب الذين نَسيْناهم، أودعْناهم القبْوَ وغادرْنا المكان. في برد النسيان يظلون. لن يفتح أحدٌ بابَ القبو. وفي البرد أذكُرهم، هذا الصباح، والصباح السابق على هذا الصباح. وقتٌ لتعبي الذي يتذكر العائلةَ التي مرضَتْ وأعلنَتْ في كتابتها عن المرض، مرضها، في لغة لا تحترمُ قواعدَ العَرُوض ولا قواعدَ القصيدة ولا قواعدَ الحياء والحشمة والصواب. هي قواعدُ لمَنْ كان لا يجدُ في الحياة إلا ما يتطابق معها. أما هؤلاء النبلاء الرومانسيون فهُمْ من هنا جاؤوا من مرضهمْ ومن فكرتهم الجديدة عن المرض. ومن لغتهم أدركتُ كيف أكتبُ أني مريض بشيء. كأنّه التّعَب.

يــدٌ تغيبُ عَن الأدَب

يدٌ لها تاريخُها القديم الملازمُ للأدب، للثقافة، للسياسة. تلكَ اليدُ التي كَتبت الرَّسائل بفنيّة لُغوية، عبْر تاريخ أُمم وحضارات. اليدُ المباركَة، التي نعثُر عليها منبسطةً في مؤلفات عربية قديمة، في شتّى حُقول الثقافة، أو تلكَ التي كان لصاحبها، المقرّب من السلطان، أن يعيش في فترة ازدهار الدّول عيشَةً تُضاهي عيشةَ الأمراء. تلك اليدُ التي خاصمَتْ يدَ الشّاعر حيناً واستسْلمَتْ لعَجيبِه حيناً آخر. يدٌ بحدّ ذاتها تاريخٌ ثقافيٌّ، يدٌ مُتموّجةٌ في حكايات تتحوّل إلى أساطير على لسَان عاشقِيها. سمِّها اليدَ ثُمّ اذْهَبْ إلى مَا هُوَ أبعدُ من اليد، وأبْعَدُ من الرسالة، في ثقافةٍ وحضارة.

يدٌ أتذكّرها هذا الصباح. يدُ الرسائل التي كنتُ أسْعَدُ بها منْ أسبوع لأسبوع أو من فترة لفترة، عندما كنتُ أسْتلم رسالةً من صديق أو أقرأُها في كتّاب من الكُتب. نعَمْ أتذكّرها كأنها كانَتْ، أقُول، أو كأنّها لَمْ تكُنْ، أقُول. الإثباتُ والنّفْيُ سيانٌ في ذَاكرة مخلُوعَة النوافذ، لم تعُدْ تقوم بوَاجبها اليوميِّ الذي تعوّدْنَا على أنّه التذكّر، فإذا بي أتيقّنُ لاحقاً أنّ واجبَها هُو النِّسيانُ، كما كان ذكَر لي بُورْخيس. ذاكرةٌ

وظيفتُها نسيانُ ما عاشَتْ وما علِمَتْ وما قرأتْ. واجبٌ لكَ أن تتفحّص جدَارتَهُ في تاريخ ثقافيٍّ وفي قيم حضارية. وهُو ما مجّدتْه كلُّ قيم الإبداع الإنساني.

وأنا أنْسَى ما عليَّ أنْ أنْسَاهُ لكَيْ ألْتقي الصّباحَ مع هذه اليد، منبّهاً نفسي على ما نَفْقده في حياتنا الشّخصية والثقافية. طقوسُ انتظار سَاعِي البَريد، في الحياة الإنسانية الحديثة. في الطقُوس، التي كانت شبيهةً بطقوس الشَّعائر الدينية، آدابٌ بكاملها، مصائرُ بشرية، أفراحُك، أحْزانُك. هيَ الطقوسُ الخاصة بانتظار سَاعِي البَريد لتقرأَ رسالةً من قريب، عَاشق، صديق. قبْلَ موعد مُرور سَاعِي البريد، الملاك البشريّ المخْلص للجَميع، الذي يُساوي بيْنَ المُرْسَل والمُرسَل إليْه، المُحافظ على الموْعد اليوميّ في المُرور، وهو يظهرُ من بعيد، أوْ كأن أنفَاسَهُ تهبّ مع دقّات وقْت المُرور، مؤنسُ الناس في الأزمنة الحديثة.

هي طقوسٌ لا تُفارق الأشْخَاص. وبقدر ما هي طقوسٌ مشتركَة بقدر ما هي فرْدية في انتظار رسَالة كُتبتْ بيَد وبخطّ يد على صفْحة لربما تُصبح أكثَر منْ صفْحَة. وأنت تنتظرُها لتقرأ ما يشدّك إلى قريب، عاشق، صَديق. كانتْ كتابةُ الرسائل تحمل علامةً على نَبالةٍ قابلةٍ للتّقاسُم. لا فرْقَ بين شخص وآخر عنْدما يسْتلِمُ الإثْنانِ رسالة. استقبالُ الرّسالة. قراءةُ الرسالة. طقوسٌ تتوَارَى معَ ما أصبحْنَا نعيشُه اليوم من ندْرة هذا الصّنف من الرسائل. لا نتذكّر ما كان لهَا في تاريخ شخْصيٍّ وفي تاريخ إنساني وحضاري يمتدُّ إلى عُهود، مثلما ينْقَسِمُ إلى تيارات ومدَارسَ فنية. ذلك ما كُنا ندْرُسُه كفنٍّ من فنُون الإنشاء.بحسَب تسْمية العرب لهذا الفن. كنتُ أحبّ فنَّ الإنشاء. وهو كان واضحاً لدَى نُقّاده وعُلَمائه. ابنُ الأثير، مثلاً، لم يتردّدْ في إعْطائه تسميةَ الأدب، أدب الكَاتِب والشاعر، مقدّماً الكاتبَ على الشّاعر في زمن اضْطربَتْ معه وضعيةُ الشّاعر من المشرق إلى المغرب.

في كُتب التّراجم الكُبرى، في الموسُوعَات الأدبية العربية، نماذجُ تتعدّد من فنّ الرسائل والإنشاء. أجْمَلُها رسائلُ المتصوّفَة، المفكّرين، الفلاَسِفَة، الشّعراء.

لا تجذبُنِي البلاغةُ في الرسالة. هناك الشخصيُّ، الفَالِتُ من عِقَال الانضباط، من الأخْلاقي والاجتماعي. جملةٌ تهمسُ النفْسُ فيهَا. جملة تتعذّبُ، جملةٌ تتأمّل الحياةَ والموْتَ. جملةٌ لا تُخفي الجنُون أو الشّهْوة. هذه الجُمل هي ما يُعيد إلَى النفس جمَال الارْتجاج، بعدما استكانَتْ إلى الرّتيب في العلاقة مع الذّات ومع الإنسان ومع الأشياء ومع العالم. إنّها تُسكر الأعضاءَ، وهي تشْرُدُ بعيداً عن الانضباط. جملةٌ قدْ لا تُفيد أكثَر ممّا هيَ مرصودةٌ له من همْز الحَواسّ.

معَ الرّومانسية أصبحت للرسالة مكانةُ السرّ الأعْلَى، مكانةُ الابتهاج كذلك. هذه الرسائل، التي كتبها في العربيّة جبران خليل جبران، تشكّل بحدّ ذاتها عملاً فنّياً، له ما ينْفَصلُ به عن كتاباته الأساسيّة. جبران أحدُ أسَاتذة كتابة الرّسالة العربية الحديثة. أذْكُر جبران، وأنا أعْنِي قبائلَ كُتّاب وفنانين من العالم في القرن التاسع عشر والعشرين: رسّامين وموسيقيّين، شعراء ومسرحيّين، راقصين وروائيّين، نحّاتين ومعْماريين. أدب حقيقيٌّ يَخْتفي في فنّ الرسائل. فنٌّ اليَد التي أُباركُها كلّما وجدتُ نفسي ترتجّ في رسالة كان كتبها غريبٌ لغَريب. مجْنُون لمجْنُون مهَاجِر. هيَ فنّ ما لاَ يَعترف بالحُدود بيْنَ الأجناس الأدبية والفكْريّة، ما يكْتفي بالهَامش المحجُوب، الصّامت، المنْطوِي علَى ذاتِه، فِي رسالة بيَدٍ تُغادر صاحبها وترْحَلُ إلَى حيثُ لاَ هُو يذْرِي ولاَ هِيَ. ترحلُ في جُمْلة، ومنْها إلى نفَس. رَجّةٌ هيَ الهمْزُ، المهْمَازُ، يدٌ ورسَالة.

ولا أسألُ، اليوم، عن وجُود هذا النّمط من الأدب. أعرفُ، متأكداً، أن الأنترنيت ينزعُ منّا هذا الفن. من قبلُ كان الهاتفُ أخذَ في الإغراء بالتخلّي عن كتابة الرسالة. مع ذلك لم ينجَحْ تماماً في حجْبِها عن حياة الناس، وعن الحياة الثقافية والأدبية والفنية خصوصاً. لاَ، لمْ يملك ما ينتزعُ به الرسالَة من يَدِ كاتبها. ما أغْرى به الهاتفُ الثّابت كان محدوداً في الوقْتِ والفَاعليّة، بعكْس ما أصبحْنَا، شيئاً فشيئاً، نعيشُه اليَوْمَ في رسالة إلكترونيّة، كمَا هي تسميتُها الرسمية. رسالة شبيهةٌ

بالبرْقيّة، التي كانت وظيفتُها هي الإخبارُ بأهمّ المعلومات، في أقلّ الكَلمات. نعْيٌ، موعدٌ، خطَر، أمرٌ، نتيجَة. والمرسَلُ إليْه يكمّل الجملة. كلماتٌ معدوداتٌ تحْمل في طياتها تفاصيلَ تتطلّبُها الرسالة. الكلمةُ المجرّدَةُ، المستعْجَلَةُ، الهاربةُ من الوقت، في أقلّ سُرعة. رسالةٌ لا يَدَ لهَا.

بدُون يد تَكتبُ اليومَ رسالةً بسرعة جملة أو نصف جملة. رسالةٌ إلكترونية. وها أنت تبْعَثُ بها إلى لائحة مطوّلة من الأسماء. اخْتَر العدَد الذي تشاء من المرسَل إليهم، وفي رمْشَة عيْنٍ تُخبرك الآلة بنجَاحِها في عملية الإرسال. بدُون يَدٍ، ولا حتّى اسْم محدّد، قريبٍ، عاشقٍ، صَديق. رسالةٌ مغْفَلة تلبّي حاجَة العصْر، الذي أنتَ تعيشُ فيه، كما يجبُ أن تعيش، مُغفَلاً، تُراسِلُ بجملة، نصْفِ جملة. ولا يدَ تحتاج إليها في كتابة رسالة أنتَ ربّما لم تعُدْ تفكّر فيها. وقد لا تستطيعُ بعْدُ الاحتفالَ بطقوس انتظارها. رسالةٌ في جُملة، نصف جملة. وهذا الكمّ المُملّ من الرسائل المُتشابهة. خبَر. عرْضُ سلْعَة. صورةٌ شبقيّة أو إباحية. لن تفرّق بين رسالة ورسالة. بين جُملة وجملة. السرعةُ التي تكتب بها الجملةَ هي السرعةُ ذاتُها التي تقرأها بها.

هذه الرسالة التي تكتبها، أو تتوصّل بها، في أيّ وقْت وفي أيّ مكان، تستغني عن الورقَة والقلَم والمظروف والطابَع البَريدي والختْم وسَاعي البريد. سرعةٌ تُبْطل الطقوسَ كلّها. انتظارٌ من الاتّجاهين. حُلمٌ. شوْقٌ. سهَرٌ. توتّر. كلّ هذا باطلٌ. لها طقُوس وشَعائر. ما لم يعُدْ لَهُ وجودٌ في حياة شعوب، بسبب السُّرْعَة وانعدامِ الوقت. لها طقوسٌ كانت مصْدَرَ الخوْف والطّمأنينة. وأمكنةُ ممارستها الجماعية أصبحَتْ مهْجُورَةً، خرِبَة. سرعةٌ تخلّصُك من تذكّر ما كانت طقوسُك عليْه بانتظارِ اسْتلام رسَالةٍ وأثناء قراءتها بصوت خفيضٍ، في صمْت يرتفعُ من الأرض إلى السماء.

إنّها الرسالة التي تضيع سماتُها من الثقافة الإنسانية. كتّابٌ معْدودُون ممّن

يظلّون أوفياءَ لماضيهم. هُمْ وحدهُم الذين لا يزالون يُواصلون كتابتَها بيَد مُضْطربَة. علاماتُ الشيخوخة باديةٌ على اليَد والخطّ. لكنّ اللّمعَانَ الذي كان يُضيء الرسالةَ هو نفسهُ الذي يَسْتأنفُ الإضاءة. ومقابلَ هذه الفئة تنتصرُ الرسَالةُ الإلكترونية. جملةٌ، نصْفُ جملة. بسرعة تكْتُب أقلّ ما يمكُن أن يقْرَأه المرسَلُ إليه، ولديْك لائحةٌ أصبحت أقْوَى من مفكّرتك. لائحةٌ لا تنتظر منْكَ رسالةً. جملةٌ واحدة، حتّى لا تكتبَ، لا تقْرأ، ملاحقَةً لأحْوال السُّوق الذي هو اليوم الساحةُ العموميّة الوحيدةُ التي تشجّع الناس على الاجتماع لا على التّواصُل. ما يَعنيهم هو الأشياءُ، البضائعُ المعروضة، لكيْ يتساوَى الناس في السّوق، وتتحقّق ديمقراطيةُ استهلاك المنتوجَات التجارية. وليس لديْكَ وقتٌ لتكتُب رسالةً إلى صديق قد يكون هو نفسك.

جملةٌ، نصفُ جملة. فنٌ جديدٌ بقواعدَ لا شكّ في ذلك. لكنّ اليد التي كانت تكتبُ رسالتَها، مُسافرةً باللّغَة وفي اللغَة، متأملةً، مُستغرقةً في بوْح وفي اسْتنطَاقٍ، لغةِ ما يتفرّدُ به كاتبٌ، فنّانٌ، مفكّرٌ، عالمٌ، يدٌ لَمْ تعُدْ بيننا ترجّ الملَلَ وتهمزُ النفْسَ. يدُ رسالة للقاء مع الدّخِيلة في زمَن يدُوم متدفّقاً في شكْل شلاّلٍ عنيفٍ، لرجّ ما يتكلّسُ في العميق، الأعمَق، الإنسان.

تذكرتُ اليدَ ورسالتَها هذا الصباح، في وقْت تطْغَى فيه الرسالةُ الإلكترونيةُ بوقَاحَة. حتى الرسائلُ التي لا تعْنيك تُحاصرُ عنوانَكَ البريديّ. وفي أقلَّ من بُرْهَةٍ يمتلئُ الصندوق بلائحة مغْفَلة من رسائل إلكترونية. وأنتَ تُطيع الحَاسُوب، تنتقل منْ رسالة إلى رسالة. لا تفطِنُ إلى أنّ أغلب هذه الرسائل لم يستأذنْكَ في استعمال عُنوانك. لم يستشرْكَ في صيغة جملة ولاَفي موضُوع الجملة. وبدلاً منَ الانسياقِ وراء هذه العبوديّة للسّيل اللاّمعْنَى لهُ من الرسائل، تحسُّ بكلماتِ رسالةٍ كُنْتَ قرأتْها لابن عربيّ، لرامبُو، لنيتْشه، لفانْ غُوغْ، لملارْمِي، لبَاطَايْ، كلماتٌ تشعّ في لُغة وفي نفْس.

فهل انتهَى زمنُ فنّ الرسالة؟ وهلْ يُمكن للأدب، بَعْدَ اليوم، أن يحافظَ على

جذْوة الأسْرَار بانتفاء فنّ الرّسَالة؟ لا جوابَ لي. أتحاشَي التنبؤَ بما يُمكن أن يتعارضَ معَ كلّ نبوءة. أعترفُ أنّني أنْتَمِي إلَى تاريخ ثقافي، إنساني، من أبرز علاماته فنّ الرسالة. تاريخٌ أستعرضُه وأمامي صندوقُ البريد الإلكتروني، المكدّس بمَا لا معْنَى لَهُ منَ الرّسَائل، في جُمْلَة، نصْفِ جملة، إتقاناً متزايداً للكيْد باللّغة، بالجَمَال الأعمَق فينا. وبيْنَنَا رسالةٌ لا تحتاجُ ليَدٍ. واليدُ موضوعَةٌ فوق رفٍّ صغيرٍ، في قاعة أصبحت مهجُورة.

فــي الأمْـكـنَـة

.1

عندما المكانُ يتعدّد، يختلفُ، يتفرّع، يدُور، يَسْتطيل، يُصبحُ مكاناً للسفر. تلك تجربة الجسَد مع المكان. هي العينُ التي تَرى المكانَ أو الأذنُ التي تسمعه. وبالحواس نحدّد طبيعةَ المكان، كما بالمعرفة. نَفَسٌ يُعيد نشء الحواس، على الدوام. ولاَ أعودُ في ذلك إلى مقُولات فلسفية. هي الحواسُّ والمكانُ، قبل كل شيء. وبينهما هذا النّفَس. لديْنا أمكنةٌ ملقاةٌ خارج مكاننا، بعيداً أو قريباً، حسب الحواس التي بها نتقدم نحو المكان، وبها أيضاً أُوعِزُ لنفسي أن المكان الذي ليس مكاني، منَ المحتَمل أن أطلَّ عليه من كلمة، من كتاب، من صورة. ولكنْ من المحتمل، في الوقت ذاته، أن أستنشقَ هواءَهُ وروائحهُ بحرية، ذات صباح.

يتهيأ لي أنّي كنتُ طيلة أيّامي على سفر. العالَم كانَ يتطلّب منّي ذلك. هو المكانُ الأوّلُ الذي لم يَهبْنِي هيئة الاستقرار. كذلك كانت تبدو لي القاهرة أو بيروت أو حتى دمشق. دون الحديث عن جهات أخرى، لها حضورُ الأمكنة المعْجبة. باريس، لندن، موسكو، نيويورك، طوكيو، بكين. هيئةُ الاستقرار ربما ليسَتْ من صفات المغربيّ، الباحثِ عن المعرفة. كان المغربيُّ دائماً يجعل السفرَ

شرطاً للمعرفة، فيرحل إلى الأندلس أو الشرق. ولكن نموذج القرن التّاسع عشَر، في فاس، يُوحي لي بالنقيض. أصبحت النخبةُ الفاسيّة متوحدةً بالمدينة. والمطبعةُ الحجريّةُ الواصلة من القاهرة، مع المعلم المطبعجي، أخذت في طبعْ الكتب المقرّرة في جامع القرويين، وهي نهاية المعرفة.

لم يكن ثمة سؤالٌ كبير عن العالم الخارجي، كمكان للمعرفة. فاس مكان مُسوّر. سماءٌ تحرس الجنةَ التي مكانُها فوق المدينة، كما كان المقدسيّ يعتقد ذلك بالنسبة للقدس. «إن كانت الجنة فوق الأرض فستكون في أرض فاس، وإن كانت في السماء فستكونُ سماء فاس». هكذا وضع الخيالُ الفاسيُّ للعالَم خريطة الدنيا والآخرة. رسم حدود العالم، التي أحاط بها نفْسَه وفي شبه أنين ألقى بها. حروبُ تطوان أو وجْدة، كلها أصبحت تدل على أن هناك مَنْ يهدد. أجنبيٌّ يريد الاستيلاء على مُدن، ومنها على سائر البلد. تلك قصة مراحل التّغلغل الاستعماري في مغرب القرن التاسع عشر.

هذا العالم الخارجي، الغازي، لم يكن مطروحاً كسؤال معرفي. كانت هناك علاماتُ الانفتاح عليه بأساليب التعلم، ولكنها ظلتْ حبيسةَ البنية الذهنية التقليدية والأوضاع المناقضة للانفتاح وللسّفَر. خطواتٌ لم تُوصلْ نموذجاً تحديثياً للمكان كي تستقرّ فيه، بل هو مكانٌ يحثّك على السفر خارج أسوار من جير وتراب. بين الزّمنين، زمن القرن التاسع عشر وزمني، أعطاني المكانُ وضْعاً متوتراً بأقسى مستويات التوتّر. لا وجودَ لمعرفةٍ إلا بالسّفر، في الاتجاهين. ما يسافر إلَيْك وما تسافر إليه. أما القاهريّ، فبإمكانه أن يرى عالماً ثقافياً بكامله يولد في حيِّه، أو أمام بيته، أو بين أفراد العائلة. وهذا ما لم يكن لك أن تظفر به شَاباً يبحث في فاس عن معرفة ما هيَ المعرفة الحديثةُ وما معناها.

.2

علَى سفر. ولي إحساسٌ كنتُ أتقاسمه مع أبناء بلادٍ أخرى، في العالم. سفر الثقافة إليك أو سفرُكَ من أجل الثقافة. بالتدقيق، من أجل تحديث الثقافة. ولربما كان من الأفضل اختصارُ حَياتي في سفر، كهذا الذي هو مصيري، حيثُ الجغرافياتُ الثقافية متبدِّلة، من عهد إلى عهد، ومن زمن إلى زمن. ذلك الشرق، الذي كان وِجْهَةَ المغربي المتعلم بالعربية في سفره من أجل الثقافة، أو ذلك الكتاب الذي كان يصلني من الشرق، هما الآن خارجَ ما كانَا عليه. تبدّل الزمن. وأول ما عليّ أن أستوعبه هو الزمنُ الثقافي، الذي به ألجُ الأزمنة المحايثة والمجاورة.

إن سفري حقيقةٌ ومجازٌ، في آن. وهو رغبة في التعلم. ربما كان قولٌ كهذا لا يعني ما يفيد عربيّاً بعد أن أصبحنا نلاحظ دلالَة السفر تتخلّى عن بُعدِها المعرفي والأنطولوجي. سفرٌ يتنكّر للسفر. إنه يعوض السفر بالامتياز، أو بالخضوع. وهكذا افتقدْتُ شهوةَ مثل هذا السفر، الذي لا يعلمني شيئاً. مناسباتٌ هي الثقافة. ونحن راضُون بذلك، بل نتزاحمُ حتى لا تضيعَ منا فرصةُ الغنيمة. فبأيّ غنيمة يتناهَوْنَ وهُمْ يسافرون؟ لا أفهم. وليس ذلك منْ شأني. فالسّفرُ، عندما يتخلى عن السفر من أجل المعرفة، وفي المعرفة المفتوحة على سُلّم اللانهائي، يُصبح باطلاً.

ولعلي أحاولُ أن أنفردَ بهذه العزلة التي تزيدني تشبثاً بالابتعاد عن المراسيم، كيفما كان نوْعها. مراسيمُ المؤسسة المقتدرة على إلغاء السفر. ومن خلال السفر على إلغاء الثقافة، بما هي سؤال لا يتوانَى عن مُراجعة المسلّمات وعنْ إدراك العَوائق في رحَاب القلق المتزايد أمَام الإنْسان، في هَذا الزمن، بيْنَ اخْتيارات تكاد تعصِف بالنماذج التي تعودنا عليها. لا نماذجَ النصف الأول منَ القرن العشرين، بل نماذج نصفه الثاني. مرحلةٌ كانت عاصفة، أشد تأجّجاً من عواصف السابق عليها. وهي لا تتأخر في تقويض البدايات، كلما اطمأنتِ النفْسُ أو توهّمتْ أنها تطمئن.

هناك ما يُغيّر وجْهة سفري وما يؤكّد لي أنني لا أُوجد بدون سفر. إنهما معاً

يتمازجان، وفيهما أظل وفيّاً للتعلم. أسافر حين أختنق في العموميّات، في الجمل المضادة للمعنى، وفي الكلام الذي يتكرر، رغبةً في المحافظة على العادة. أغيبُ عن تلك النبرة التي هي سُنّة أن نتكلم بصوت جَهْوري، نبرة تعلُو السّماوات، عندما تنشأ في جُبّة الكَلام. هياكلُ نُنشئها لمجرّد أنْ يرتفع الصوتُ، بالعلْم والحقيقة والمجْد. لكننا لا ندْري لمن نتوجّه بهذَا الكَلام ولا نأخذ الزمنَ كمعْيار لما نلهَجُ به، بين أقراننا، أوْ بين وَافدين عَليْنا. وآخرون يُنصتون بخُشوع لهذَا الصّوت الفارع، الممتدّ في عَلْياء السّماوات، التي تُدركها أصواتُنا المحشوّة بالكلمات المبتذَلة. ونحن مقتنعون بأنّها هي التي تُرضي الوَافدين عَليْنا، وهُم في خُشوعهم يتكَاثرون.

لا أحْسنُ موقعاً كهذا. فكيف لي أنْ أندم على ذلك؟ إنّني للسّفر. لسَفرٍ يخلّصني من الاطمئنان، الذي يتسرّبُ أحياناً إلى النفس خِفْيَة. ودون همس يَشتغلُ الاطمئنَان، رغماً عنّي في وسَط لا يترجّى غيْرَ الاطمئنان.

.3

لا تناقضَ بين العُزلة المطلوبة في الكتابة وبين السفر من أجل التعلم. تعوّدْنا على خطاطة هذا الترافق بين الكلمتين، في تاريخ ثقافة إنسانية، لها صيَغٌ متقاربة في الصين، في الهند، في فارس، في العالم العربي، في أروبا، في أميريكا وإفريقيا. العالم كلّه اتّبع قانُونَ التّرافق هذا. ولا نُفْلتُ منه، في أيّ زمن، رغم أن ما نعيشه اليومَ يحثّنا على إعادة النظر في الوسَائل التي عَلينا بهَا أن نتقدّم في تحْقيق ترافُق كهذا. هيَ مسألةٌ ذات أهمية في الإفادة من الإنْصَات للزّمن ثقافياً. إنصاتٌ يدْعُونا إلى المزيد من القَلق حتى لا وهَنَ في العظم، بارداً يتلقّى الأسئلة المتجدّدة.

وعليّ، هُنا، أن أوضح قليلاً. عندما أتأمّل تاريخ سفَري (أسفاري) أكتشفُ ما يفصلُني عن تلك اللحظة الأولى التي أخذتُ فيها أقرأ. كان القرآن كتاباً مسافراً إليَّ. وصل إلَى المغرب في العهد الأول للإسلام. مع هذا العهد ابتدأتُ عملية

التعلّم في الجامع. وعند الانتقال إلى المدرسة الابتدائية كانت الكتبُ المقررةُ كلّها مسافرةً إليّ منَ الشرق، علوماً ونُصوصاً أدبية وغيرَ أدبية. ثم لمْ يتوقف سفَرُ الكتَاب إليّ فيما كنتُ أسافر في هذه الكتب. الجيلُ الأسبق من القُراء المغاربة، في بداية القرن العشرين، لم يكن الكتَاب الذي يقرأه هُو بالضرورة كلُّ ما يُسافر إليه منْ خَارج المغرب. كانت مؤلفاتٌ مغربيةٌ تُطبع في المطبعة الحجرية بفاس، ومن هذه الكتب استمدّ المغربيُّ علومَهُ ومعارفه في القرويين. لكنني عشتُ زمناً آخر، مختلفاً، فيه أصبحَ المكانُ متعدداً للثقافة.

ما الذي حدَثَ منذ تلك اللحظة الثانية، حتى الآن؟ قد يبدُو السؤالُ فاقداً لكل أهمية. مع ذلك أتفرّسُ فيه، أناوشه، أرشّهُ بقطرات من عطَش الرّوح. وفي عملية المؤالفة يتبدّى لي المكانُ المتعدّدُ مجسِّداً لمصير، حتى أقولَ: لا وجودَ لي بدون سفَر. أدرك أن ما أقصده من عبارة «علَى سفَر» هو التعلُم، في عالم أحتاجُ فيه إلى المَزيد من التعلم. إنه مُجسِّدٌ لمصير بكامله وبدَلالة جديدة.

.4

دلالةُ استيعاب الزمن، لا شكّ. ذلك الموقفُ منَ التعلُّم في بداية القرن العشرين، بالنسبة لكل عربي، كان يطرحُ علَى ذاته الجماعيّة سؤال: كيفَ أتعلّمُ من عالَم يكتسبُ معرفةً تفصلُني عنْ زَمني؟ هُو الآن موقفٌ معقّدٌ بصيغة أكبر. فالتعلُّم الآن يؤدي إلَى كيْفَ يُمكنني أن أقول كلمتي. هذه الأنا جماعيةٌ، بعد أن تعلمتُ كيف أخرج من زمني القديم، دون أن أحقّق ذلك حتماً. أوْ في حالتنا المهيمنة حيث ارتدّ كل شيء على نَفْسه، وهو يتنكّر للمعرفة الحديثة، راغباً عنْها، شاحذاً أظافرَ ليفترسَ كل ما تعلمناه. ولي أن أستمرَّ في الانْفصَال عنْ كُل هذا، بمعنى اختيار التعلّم بالدّلالة الجديدة.

هذا هو معْنَى الزمن، الذي يُعيد قراءةَ المكان، فيما هُو يواجه ثقافَةَ المراسيم

وثقافةَ الارتداد عن التعلم. وضْعٌ صعبٌ، ممضٌّ في جميع الأحْوال. ولا نجاةَ منَ السّفَر علَى سفَر، بين حدّيْن يتوازيان ويَضيقَان. لم تعد القاهرةُ ولا بيروت مكانيْن للتعلّم. هذا أكيد. والاستمرارُ في إلْغَاء السؤال الشخصيّ مُناف لزمَن التعلّم أيضاً، وأنتَ بينهُما تُقيم. فكيفَ تقيمُ مُسافراً، خارجاً من أزمنة لكَ أن تنغرسَ فيها حتّى الجذْر، راضياً بما تُخفيه عنك منْ مُفاجأة الأخطاء والحوادث الملازمة لكلّ سفر فيها جميعاً؟ إنّك تبحث عن سؤالك الشخصي دامياً، مُبعثراً، غُباراً بيْن الغبار.

وهَذه الشُّكُوك

.1

شُكراً للشكُوك التي تُداهمني في الأوقَات المفاجئة. شُكراً لها وهْيَ تهجُم عليَّ في صباح، وأنا أنفردُ بالكتابة، بمَا كتبتُ أوْ بمَا أنا مُقبل على كتابتهِ، مواجهةً للزمن الذي يفترسُ العظامَ، ماشياً في طريق، أو متّكئاً على مِخدّةٍ لاستراحةٍ أتوهّمُها انتصاراً على الواجب اليوميّ. إنه لَيْس واجباً، بقدر ما هُو اجتثاثٌ لأنفاسِي من جُذورهَا. هناك الشكُوكُ. عندما تهْجُم عليَّ أمْتثِلُ لهَا، راضياً بآلامها. يدٌ متجمّدةٌ، عينٌ حَسِيرةٌ. والنّفْسُ مُجهَدةٌ، قريباً من الدّفلى والهواءِ الصّاعدِ، مع بداية الصَّباح.

لو كنتُ أعلم مواقيتَ الشكُوك لوضعتُ لها الحَواجزَ والسُّدودَ من بعيد. لرصدْتُها، وقلتُ لهَا: نحنُ معاً على موعدِ النّزال. ولكنها، هذه الشكُوك، تغافلُني عنْدمَا أنساها، تماماً، وأبتعدُ عنها، في غفْلة عن فعْلها الماكر. هيَ الشكُوك. أوّلُها ملتبسٌ بآخرهَا. كتلةٌ مغْفَلة تهجُم عليَّ، في وقْتٍ مجهُول، بريح تقتلعُ الأحشاءَ من منابتها، فأصرخُ: أنْقذِيني أيتُها الشكُوكُ منْك ومنّي. نحن معاً لا نقْدرُ علَى

مُواجهةِ بعْضنا بعضاً، قبل أن يحِين الموعد. لكنِّي على حين غرّةٍ أستسلمُ من غير مُقاومة. يدي، التي تمتدُّ لتتلمَّس مصدرَ الشكوك، ضائعةٌ حقاً . هي في حُلكةِ اللَّيْل. يدٌ تتحرَّكُ ببطءٍ كيْ تعثُر على نشيدٍ، فَلا تصْطدمُ إلاّ بالمغْفَل وحْدَهُ. تلك صفةُ الشكُوك.

لو كنتُ لاعباً ماهراً لألقيْتُ بالشكُوكِ إلَى جوْف البحْر. إنه السيِّدُ المجاوِرُ الذي يُكرّر نداءَ السفر، على سفُن من جنسيَّات لا أنجحُ في ضبط جُغرافيتها على الأرض. رغم ذلكَ فالصوتُ المنادي عليَّ هو النداء نفسُه. علامةُ الرحيل. وأنا أتخيل المُبحرِين يتطلّعُون منْ سطح السفينة إلى الشاطئ وما بعد الشاطئ. ربما كان حنينُ عودتهم إلى بلادهِمْ هو الباعثُ على مكوثهمْ زمناً طويلاً فوق السطح. ربما كان تداؤُهم عليَّ، أنا المجهولُ بالنسبة لهم، هُوَ أيضاً ما يُغريهم بتجديد الوقُوف، كل مرّة عندما ترسُو السفينةُ أو تستعدُّ للرحيل. وهُمْ على ظهر السفينةِ يتخيّلُون هذه الأرض التي عليها أُقِيم.

.2

شكراً لكِ إذَنْ أنت أيتُها الشكُوك. بيني وبيْنَ البحْر، بيني وبين الكتابَةِ، حالةُ اكتئاب تنشأ وكأنّها جسدٌ يحُلُّ في أنفاسي. جسَدٌ لا أميّزُ وجْهَ صاحبه في اللحظة الأولى. ثم لا يمرّ الوقتُ إلا قليلاً فإذا بي أكتشفُ أن هذَا الجسد هُو أنَا. هوأنايَ التي أراها قُبالتي فلا تقول لي شيئاً محدّداً، بقدر ما تُلقي بحالة أعْجِزُ عن وصفهَا. نعَمْ، هذا العجزُ أقْوى منِّي. هل هناك شيْءٌ أشرسُ من هذا العجْز؟ والكلماتُ لا تبحث عن فُرصةِ انبثَاقِهَا. هي قبل ذلك ترغَبُ في ترْكِ مكانها للصمت أمامَ الشكوك. أنايَ تبدو مريضة. ولا فكَاك لي منكِ أيتها الشّكُوك، حتى ولو تَبادَر إلى ذهني أنّ ما بيني وبيْنِي مجردُ حالةٍ لا شأن لها بالكتابةِ ومَا يتبعُهَا.

وأعيد التأمُّل في صدْري الذي هو أقربُ إليّ. فتحةٌ ذات طوابق من الظلمات.

قرونٌ من ظلمات كلُّها تسقطُ على الصدْر، أغْنِي علَى فتْحة الصّدْر. إنّه الاختناقُ الذي يتضاعف في قصبَة الصّدْر. أحس بصدْري مكاناً خرباً وبأعضائي خيوطاً منحلّة، كما لو كانتْ مصابةً بمرض يصعب تغْيينُهُ أو وصفُه. ربّما كنتُ أقاوِم شيئاً نازلاً من هذه الجَحِيم التِي نسمِّيها التاريخ. وأنا بريءٌ، غيرُ بريء منْ هذَا التاريخ. أنزل الدُّرجَ باتجاه الحديقة شبهَ دائخ. لا أعرفَ بالضّبطِ ما تفعله بي قدمَاي، وإلى أيّ مكان تدْفعان بي.

سأشكُر الشكوكَ مرّةً أخرى، لأنني معَها أنزل إلى ظُلمَاتِي، ظلماتي وحْدَها التي تُؤاخينِي. أشعر بقدميَّ تبرُدان، والبردَ يغلّفُ الأمشاط. أنا باردٌ. ولي صمْتِي هُنا، في هذا الصباح الذي يتكرّرُ، حاملاً نفْسِي إلى حيث لا أدري. يدَاي تلْمَسان شيئاً، وأنا لا أحسّ بما تلمسَان. هناك يَدايَ، وصدْرِي المندفعُ صوْبَ الحديقةِ، على أرض من البجْمَاط. حصيرةٌ. غِطَاءٌ خفيفٌ. مِخدّة. وأنفاسي هاربةٌ مني أيّتها الشكُوك.

.3

لم يكن الأمر يتعدّى الإنصاتَ. أعشقُ الإنصاتَ، على نحو مَا كنتُ في أيام مراهقتي. أصْعَدُ إلى الغرفة المعلّقة، في أسفل السّمَاوَاتِ، وأنصتُ إلى شيْء غريب عليَّ. إلى كلمة مثلاً، صورة ألْمحُها، فكرة لا أستطيع تمييز حدُودِهَا. ربما الرأسُ والذّنَبُ، كما كانوا يقولُون. هذه وتلك كلها كانت تقودني إلى الغُرفة. وأنا أغلِقُ البابَ بدقة وصرامةٍ حتى أسْكُن لوحدتِي.

قدماي، هذه الأيام، صُبْحاً وعشيةً، تسرعان بي إلى دُكَّانَة مُشرِفَة على الحديقة الصغيرة. زهُور الدفْلَى تفتحت منذ شهْرِ أبريل. لونُها الورديُّ يفصِحُ عن شبقيّة لا تفارق الكتابةَ. على الدُّكَّانَة أجلس متربّعاً. ظهْرِي مائلٌ، ميلاَناً مُعْتدلاً، وعيْنَاي على الأوراق. سحُبٌ فضيَّةٌ تعبر، شيئاً فشيئاً، فوق الصفحات. وأنا أقرأ البيتَ

الذي يسْتضيفُني هناكَ. في آخرةِ ما ينْزِلُ إليه صدْري. حالاتٌ من الصمت هيَ ما يسْتَولى عليَّ. دُرجٌ منها ينزل الصدرُ إلى مُعْتِم الأنفَاس، ولا شيءَ يدلّ على أنّنِي هناك، أو يَقْدر على إقْناع أحدٍ بأنني هُناكَ. كيف أجيبُ بأنني هناك؟ هناك. حيث لا أدري سِوَى أنّ الشّكُوكَ تفترسُني.

خرسٌ وشكُوك. هل هذا مُمكن؟ أكاد أسْخَر من نفْسي ومن عظائمِهَا التي لا أحْسن الدفاع عنها، ما دمتُ وفيّاً للتّلعْثُم الذي هو ما أملكُ، في زمن تتكدّس فوقه أزمنة، لا هيَ مكشوفةٌ ولا مستُورة. أزمنة تجلدُنِي، كلَّما اقتربتُ من اللحظة التي عليَّ فيها أن أقول: هذا ما كتبتُ. أتساءل: هلْ هذا ممكنٌ وأنا في أرذَلِ العُمر؟ لا اختيارَ لي، في النُّزول، بجسَدٍ مُشوَّهٍ، إلى صدري. وهو يعلم أنّني وحيد، وعاجز تماماً. يعْلمُ أنّهُ لاَ لسانَ لي. أتلعثَمُ. هكذا أظل مُخلصاً للصورة التي حكَم عليَّ التاريخُ بهَا، بغيْر إرادةٍ منّي، على دُكّانة. عفواً أيتها النفسُ، نفْسي. وأنا أخدعُكِ في هذا الصباح، وأزجّ بكِ في همْس أو مُناجَاة مع السحاب. صديقي السحابُ. السحابُ العابرُ. السحابُ اللامتشكل قطعةً من رمَاد. وعلى الورقة تسبقني عيْنَاي. لوْ أنني أسرعتُ لما أدركتُ عبورَ السَّحاب، وهو في مداره، مُكتفياً بعبوره، هكذا، هادئاً، تدفعُه الأنفاسُ على ورقَة. أطلب العفوَ، ولكني أعيدُ الجريرةَ أمام نفسي، التي ترفضُ أن أكونَ لغيرهَا، مهما كان هذا الغير.

4.

لي، في هذا اللحظة، علَى الدُّكَّانةِ، مُرتمَى عيْن به كنتُ قديماً أقيسُ المدَى الفاسيَّ وهو ينفذ إلى عيْني. علوٌّ قليلٌ. درَجٌ تصعد بك إلى هذا العُلو، لكي ترى وتتنفّسَ. مدى مفتوحٌ على خُضرَةٍ وتراب وحصْن وسمَاء. سمِّ هذا المكانَ ما شئتَ، أنت الذي لَمْ ترَهُ معِي. سِّمه الوهْمَ، أو سمّه الحنين. غير أنه دائماً هناك على عُلوٍّ خفيف، قريباً من السماءِ الممتزجَة بالأرضِ. الأخضرُ، البنيُّ، الحجْريُّ،

السماويُّ. تتبدّلُ الألوان بهدوء. ضرباتٌ ذهبية تبهَتُ في العلوِّ، وللعينين عوالمُ تتكون في عتمَة مسكُونةٍ بالصّمتِ. على دُكانة.

.5

بالشُّكُوك أكتُبُ، بالشكوك لا أكتبُ. هذا هو الرهانُ. وهوالعقْدُ، الذي يهْدِمُ الأسوار ويضَعُها في الإثباتِ والنّفْي. مصيرُ الكتابة يتقّرر خاضعاً لمسار يستمرّ ويتبدل في آن. هل هناك ما يدعو للاستنْكار؟ سؤال أوجّهُه لنفْسِي، وأنا أنزل الدُّرج تابعاً، بحاسة الشَمِّ وحدَهَا، نقطَ العبور المختصَرة صوْبَ الحديقة. شمِيمُ الأرض والنباتاتِ يَكسوني بدوْخَةٍ. تنتقل العيْنان إلى فضاءٍ مُضيء، ثم فجأةً سحَابٌ يعبر. هل هذا المكتوبُ ليد تنتسبُ إليَّ؟ هل المكتوب انتهَى زمنُه؟ هل هذا العابرُ، السحابُ، مجردُ غيبوبةٍ تختلط بالأوراق؟

ذلك كلُّه مقرَّرٌ في الحالة. بضْعُ سحاباتٍ، دوْخَةٌ. ما للكلمات جافلةٌ؟ هل هي الكلمات، أم الحالة، أم التاريخ؟ يترك السؤالُ ندوبَه على جَسدٍ. والجسدُ كثيراً ما يقاوم. لكنّهُ هناكَ فِي الدُّكَّانَةِ يخْشى من انتِفَاء الوقت الضروري، حينما تستعيدُ النفْسُ صورتَها المتقادمةَ العهْد. هل هي تقادمَتْ أم العينُ والسحابُ بمفردهما يطغيَان علَى اللحْظة؟ كيف واللحظةُ تنزل إلى أسفل، حيث كان النهرُ حفَرَ الأخاديدَ، كما حفَرَ الضفافَ المتعرّجة؟ أهلاً بالنهر. أهْلاً بالأسَافل التي لا تزال حبيبةً إلى الرُّحَّل مثْلِي. وأنا جالسٌ، في هدوء ظاهر.

لقد خلت الجهاتُ المحيطة من الضَّجيج. هذا حسنٌ جدّاً. إذْ لا بُدَّ أن أتبصَّرَ مصادرَ الشكُوك على الصفحة. ما لي أكتّم حُبّاً قدْ بَرى جسدي. قال المتنبي قديماً. خدشاتٌ فوق سطْح الحجَر. والغناءُ، الذي يتكسَّر، مُصدرُه يد تتكسَّر. بلَى، تقول الصفحةُ الصديقةُ: هناك يجبُ أن تُقيمَ، هناك شفاؤك. عاوِد الكرَّةَ، أقبلْ على جحيمِكَ، ولا تكْترثْ. بمُدْيةٍ لك أن تجتثَّ الأصول. شجرةٌ سامقةٌ بأوراقها الخضراءِ، شجرةُ التُّوت. بدأ بيدٍ على الحافّة المحجُوبة عنْكَ، تحت سلْسِلة السحاب،

وهو يعبُر، صامتاً، غياهبَ لا تراهَا.

هذا حسنٌ جداً. أيْ أنه يليق بهذه الحالة التي تُفارقُكَ ولا تشْمَلُك. هي منتشرةٌ على قِسْم منْ جسدكَ، فيما البقيةُ الباقيةُ من الجسد ترهَبُ أن تشْمَلكَ الشكوكُ فلا تعودُ تدْري كيف ابتدأتَ ولماذَا وأيْن. عواصفُ تتمزّقُ على ركبتيْك، في هذا الصباح المتكرِّر. تينٌ وبرتُقال. كان بوسعك أن تنْسَى كلَّ ذلك وأنتَ على الدُّكانة مختلياً بندُوب التّاريخ، التي تمّحِي، مهما حاولتَ للمرة والمرات. وتبقى الشكُوكُ خارجةً عن إرادتك .

.6

ما الفائدة من عدِّ السنوات؟ أوْ عَدّ ما كُتِب وما لم يُكتب؟ تلك علامةٌ على أنك، يوْمَ توهمتَ الخطوةَ الأولى، لم تدرك أن هناك ما هو أبلغُ سطوةً عليْكَ. كنت ظننتَ أن التاريخ ينزوي في بقعة معْزُولة. والحق أنك كنتَ تحسُّ بانشطار في الجسد، عندما تتسرّب إليه الخلوةُ على عُلوٍّ قريب من السماء. مكانٌ مُهوّى، جيّداً. ظلالُ الزيتون وسورُ الحصن يتبع حركة أنفَاسكَ. تحت الظلال كنتَ تصفّر بشفتين غير مدربتيْن على الصّفير. المهمُّ أن الوضعية كانتْ صالحة للصّفير. لدرجة أنّك لم تعبأ بالكوْن المحيط بكَ إلا عندما توقفتَ عن التأمُّل في دواخلِكَ، أوْ في عذوبة الكلماتِ التي تنعَقدُ لوحدِهَا، محوّلةً صمتَ المكان إلى عوَالم غريبة. أقصدُ عوالمَ نفسكَ الأليفةِ إليْكَ.

بذرةُ الشكوك. نعَمْ. شعراءُ، فنانون، فلاسفة، علمَاء كذلك. عندما تُدركهُم الشكوكُ في مَا أنْجزوا وما ينْجزون. لك أن تطمئنّ إذن. هي الشكُوك مشتركَةٌ، بلْ هي إحساسٌ نبيلٌ، له طاقة محوِّلة. ليستْ دائماً باعثةً على اليأسِ بقدر ما هي قوةٌ منبعثَةٌ من صُلْبِ الفعْل. وأنت بحاجة لفنجان قهوة حتى تضْمَن لأنفاسك توازُناً، في نهاية الظهيرةِ، على الطَّريقِ السّيَّار، مُعتنياً بما تحرصُ على أن يكونَ بداية

كلماتِك.

تتحدّث مع جَسَدِك بهذا المنطِق العاديِّ وأنت تنْسَى نفْسَك، أوْ لربّما كُنتَ تشمُّ رائحة السّوْسَن والقرنفُلِ على الدكّانة. تتحدّث مع جسدك في صمتكَ. هو الذي يتوفّر على كلِّ المؤهلات التي تُبعده عن شكُوكِكَ الجنينيّةِ فلاَ يزداد إلا عناداً أمامَك، مُعلناً أنه لم يعد يثِقُ بما تكْتُب. خاصة عندما تكون المسألةُ متعلقةً بزمن أساسيٍّ، لا تنفع فيه الحيلةُ البلاغيّةُ، سواءٌ أكانت مداعبةً، غموضاً أم تراكيبَ. حيلةٌ قد تثير في لحظة مَا، ولكنها ليست المقصودَ. لأن الدفاع عن الاطمئنانِ ليس من سلوكِك مع نفْسك.

.7

هل أُقارنُ بين الشّكُوكِ والشُّكوكِ؟ لا أجرؤُ على ذلك. فالمسألةُ أبعَدُ من التواضع أو التكبّر. لاَ. لاَ. إنّها فقط تلك الحالةُ التي ترتَطِمُ بهَا وأنت تنزل في الصَّباح لتُطلَّ على عالم الكتَابة، بقلب منفَطِر. هذا التعبير يخلو من كل عذُوبَة، مع ذلك أكتُبه. ربما لأنّنِي الآن محايدٌ، لستُ معه ولا ضدَّه، على دُكّانة. تستبدُّ بي الشكُوك، محفوفاً بالدفلى وبالظّلال المتساقطةِ عليَّ، من الأزمنة البعيدة، لا منَ الكُتب، بلْ من الذي عشتُه هناك، في الظهيرة التي تناديني. وأنا صامتٌ فوق دُكّانة.

.8

بالشُّكُوك أكتُبُ. بالشكوك لا أكتبُ. لوْ أنَّ عاصفةً بحجْم الشكُوك هبّت عليَّ وأنا في الطّريق أو في الخلاء لأدركتُ أن للعاصفة نهاية. يمكن البحثُ عن مكانٍ آمن عنْد شجَرة، أو خلف بقَايا دارسَة، حتى تتوقّف العاصفة. للحياة عواصفُها، مجازٌ واسعٌ. وهو متعذرٌ على التّحديد. أليسَ كذلك؟ عواصفُ قد لا نُفْلِتُ من

طوْقهَا، أبداً، مِنْ مرحلة إلى أخرى، وهي خارجية في أحيان كثيرة. لكنّ الشكُوكَ التي تتقد في السَّريرة، أمام كل ما كتبتَ وما لم تكْتُب، كيف تواجهُها؟

دوخةٌ في الرأس لا تصْفُو. إنّكَ أمامَ نفسك مباشرةً. هذا الزمنُ، التاريخُ، لا يطل عليْكَ من فوْق. هو فيكَ منْتَشِرٌ. والأوراقُ. تَطْوي الأولى، الثانيه، العاشرةَ. وماذا بعد؟ سحابٌ خفيفٌ. وصمتٌ يُلازمني. أنا مهدّدٌ بالتخلي عن الخَلوة التي أبحث عنْهَا. خَلوةٌ لرؤية أسافل الشكُوك. ومن أين لي بِهَا؟ أرفع عينيّ صامتاً. لابدَّ أنني هنا، لاَ. لا شيْءَ. لستُ مرتكِبَ جريرة تُفسد عليّ وقائعَ الأيَّام. إن لي وحدةً مجهولةً بدخيلتي، أنا الذي ظننتُ كثيراً أن الحياة ستمنحُني حريةَ الصّمْتِ والعزلةِ لأرى الشكُوكَ، شكوكاً مِنْ نوع آخرَ، في مكان آخرَ للكِتَابَة.

الـشّعْرُ والصّمْتُ

صَديقي العزيز. مرّتْ فترةٌ وأنا أودّ الكتابةَ إليك. معَ ذلك لم أفْعل. عليكَ أن تستبعدَ التّكاسل. فهذا، كما تعلم، منْ بين السّلوكات التي أمقتُها حتّى الآن. هناك ما كان يؤرّقني أكثر، وهو كيف أوجّه إليك رسالةً وأنت رحّالٌ تفضّل الانتقال الدائم بين الأمكنة دون أن تتركَ عنواناً محدّداً، مثل عنوان البريد المحْفُوظ الذي جَرتْ به العادةُ بالنسبة لمن يجدُون صعوبةً في التوفر على عنوان قار ومعلوم. أنت تفعلُ ما تأذن لكَ به مشيئتُك. مُتنقّل بين مناطق غالباً ما تمثّلُ لي مفاجأة، حتى أصبحتُ أعتقدُ أن إخبارك لي عن المكان الذي ترحَلُ إليه هُوَ أجملُ تعريف للقصيدة. أصبحتُ أخلطُ بين رسائلك وقَصائدك. لعلّ هذَا منْ رحمَة الحرية في عصرنا الحديث، حيثُ الحدود بين الشّعر واللاّشعر، بين القصيدة واللاقصيدة، أصبحتْ مقيسةً بدُربة الحواسّ والمعرفة، أكثر مما هي مُعْلَنة في دفْتر لقواعد الشعر.

منذ شهور وصلتني رسالتُك الأخيرَة، وبعدها لَمْ أعُدْ أعرفُ بالضبط أين أنت. إن القارّات التي خبرَتْها قدمَاك، والمحيطات التي عوّدْتني على مُكوثك فِيها لشهور، أسْفَل النّاقلات الكبرى للسّلع خاصة، كلها تجعلُني أعجزُ اليومَ عن تحديد

مكَانكَ، لا لأعثرَ عليْكَ بل لأعرفَ كيف أفقدُك من جديد. أخمّن أنّك تفضل الإقامة لفترة في منْطقة صحراوية. مجردُ تخْمين. الرّمال والسحابُ، هذه الأيام، في منطقة صحراوية. إنّه بحثٌ عن أصول محْجُوبة لإعْمَاقنا التي لم نعُدْ نُوليها العناية اللاّزمة. نزعْنَا طقوسها من حياتنا وأصبحنا مُنْدمجين، بيُسْر، مع هذه البربرية التي اجْتاحت العالَم. أقصدُ المالَ والعُنف. مع تفاصيلَ تتنوّع حسب السياسات والأهداف.

قد تؤاخذني على اتّباع طريقة في التّواصل بيْننا تتجاوز الحميمية. الرسالةُ في النهاية، كلماتٌ من النَّفْس إلى النّفْس. معلوماتٌ ليس من المستحّب أن تكون مُشَاعة. أسرارٌ صغيرة على قدْر حياتنَا اليومية. تفاهاتٌ نلْهُو بها. حمَاقاتٌ نمارسُها. وهكذا تكتسب الرسالةُ ما تتفرّد به عن القصيدة أوْ عن المقالة أوْ حتّى عن القصة القصيرة. لمَ لا ؟ هذه المؤاخذةُ أقْبلُ بها عن طيب خاطر. لذلك لنْ أكشفَ لأحَد عن اسْمك. هي رسالةٌ منّي إليك. واسمح لي إن أنا أكّدتُ لكَ أنها لربما كانت منْكَ إليّ. أنا أدْري. فالمسألة تختلط بتوارُد الخواطر، كلّما حاولْنا احترام لبَاقة إشْراك غيْرنا في قضايا نتبادل الآراء بشأْنها ولو بشكل متقطّع أحياناً.

أصبحت الرسائلُ تزداد ندرةً في عصرنا. الهاتفُ يضيّع علينا لذَّة الرسالة كما يضيّع لذةَ التواصل المباشر. كلماتٌ في سمّاعة، ثم كل شيء إلى زوال. بسرعة مُدهشة. مرة كلّمْتني من قرية على تخُوم مدينة مكسيكو، وكنتَ تشكو منْ ألم في سَاقك اليُمْني وتشكو منْ تَبْدِيد آخر رَصيد ماليٍّ كنت وفّرته منَ الاشتغال في سفينة نَرْويجية. بمكالمتك استطعتُ أن أزّودك ببعْض الدولارات التي لا تعني شيئاً في عالمنا المجنون بالمال والعنف. ولكنّها في النهاية أعطتْكَ إمكانيةَ تسديد ديون الفُندق والمطْعَم، كما أكّدْتَ لِي لاحقاً. وهذا بحدّ ذاته من فضائل الهَاتف. لا أنكر شيئاً. أودّ عكس ذلك أن ألحّ على قيمة الرسّالة كفنٍّ وإبداع بلغَا درجة مدهشة من الوصف ومن تحريك الطبقات السفلية للحياة الفردية. وهذا مَا أصْبَح شبهَ

مفقُود.

كنتَ كلّمتني عن الصمت، وعن المبالغة التي ترى أنني أكادُ أمجّده بها. إشارات عديدةٌ صادفتْك وأنتَ تقرأ ما كتبتُهُ في العشر سنوات الأخيرة. داخل القصائد وعلى هامشها. إشارةٌ لا تتجاوز الكلمةَ الواحدةَ وأخرياتٌ فيها من الوضوح بقدر ما فيها منَ الغموض. لذلكَ لم تعُدْ تؤمن بأن الصمتَ، في كتاباتي، كلمةٌ من بين الكلمات، ولكنه مصاحبٌ للكتابة. وتتساءلُ عن السّبب الذي يدفعني إلى عدم التكتّم عن الصمت، وتمجيده بهذه الصفات، بهذا القدر، في ثقافة عربية لا تزال مُناصرةً للجَهْر.

وأنا أجيبُكَ، اليوم، بما قد يُقرّبني منكَ أكثر. دعْني أبوح لك بواقعة لم أبُحْ بها في السابق. لكَ أن تعْلمَ أن السيدةَ توفيتْ قبلَ أن نتبادلَ الكلام بيْننا. لم أرث عنْها سوى الصمت. وأنا، بهذا، أجد أن الصمت هوَ اللغة الأم. هوَ لغتي الطبيعية. لذلك كنت، أثناء كتابة **ورقة البهاء**، شعرتُ بغواية الصمت من جديد، ثم مع **هبة الفراغ** تملّكني الصّمت. وإذا كنتُ، منذ الطفولة، أدركتُ بأنني لا أعرف كيف أتكلم، فأنا أصبحت، مع المراهقة، أبحث عن الطريقة التي أتعلم بها كيف أكتب. من هنا كان الصمتُ، على الدوام، من ضرورات الكتابة عندي، بل كان من عناصر تكويني وتكوين قصيدتي. ولكنه اتخذ في السنوات الأخيرة منحًى فاجأني بمعنى ضرورته. فاجأني برحابته. وفاجأني بخلجانه وسراديبه. أصبحت أعيشُ تجربةَ الصّمت حتى وسطَ أوضاع يُحتمَلُ أن تتراءى لك (أو لغيْركَ) وكأنهَا منافيةٌ لهذا الصمت، الذي أمجّده.

لا أفتعلُ شيئاً من الصمت، أيها الصديق. هو وأنا نلتقي على حين غرة، كما لو كان كلٌّ واحد منّا يبحث عن الآخر. كأنْ أكون جالساً وسطَ مدعوين إلى حفل، أحملُ كأسَ شاي بيدين لا تتحركان إلا قليلاً. أو أثناء سفر، في قطار أو حافلة أو طائرة. تلكَ أسعدُ لحظاتي. لا أكلم أحداً. أظل صامتاً لساعات. ربما تصدر عني

علامةٌ من علامات البقاء على قيد الحياة، ككلمة شكْر أوْ جوَاب مقتضب على طلب أو سؤال. وأحياناً أجيب بما لا أدري، فأبادر إلى الاعتذار عن عدم سماع ما قيل لي أو عدم فهم ما طُلبَ مني. شرودٌ. لا. إنه البقاء في صمت هُو السماء والأرض. الحاضرُ والماضي والمستقبل. الأحياءُ والموتى. الذاكرةُ والخيال. ثُمّ لا أصفُ لكَ صمْتي في البيت. يطول ساعات، وأنا في مكتبي الذي أفضل ملازمته، أو في وقت وأنا على حافّة نافذة (حدثَ لي يوماً أن سميتُه «وقت النافذة») تترك الهواءَ قريباً من أصابعي.

هناك، في صمت كهذا، وحيداً، أتهيأ لأكون من أهل العزلة. وعندما أبلغُها، أظل أنظر إلى اتساع الحياة (والموت)، غيرَ مرتاح للمُجمَع عليه. في العُزلة أبحثُ عن الاستثنائي. تجربةٌ أعيشُها بغبْطة، رغمَ القسوة التي تفرضها عليّ العزلة كما يفرضها عليّ الصمت. أقولُ عندَ ذاك لنفسي : هكذَا يجبُ أن تكونَ عليه الحياة، حَياتي. إنه الصمتُ العظيم. صمتٌ يستوْلي فَجأة عليّ، فأستسلمُ له أوْ لمجهول يُدركني. وفي مَاء الصمتِ أحسّ بيديّ تتحركان. صمتٌ هو الرحمُ الذي تنشأ منه القصيدة. أصواتٌ من بعيد أسمعْها تأتيني. أوْ ذبذبات، لا أدركُ معناها، تهجُم عليّ فأتتبَّع أصْداءَها أوْ تنغيماتها. لي أن أكون يقظاً، تماماً. أميّزُ الصوت، حتى يتكلمَ المجهولُ فيه. ولي أن أثقَ بأن نداء (أوْ أمرَ) القصيدة منْ ذلكَ الصّمْت، ومنْ مجهُول ذلك الصمت، تأتي. هناكَ، في هَذا الصّمْت، صمت ما قبلَ الكتابة، مَا قبل الإدْراك، أكونُ هادئاً قدْرَ الإمكان، هادئاً وكأني لم أكُنْ ذاتَ يوم صاحبَ لسَان ولا نطقتُ بكلمة. عالَمٌ بأكْمله يلفّني وأنا معَ الأذن. وحْدهَا. أجْلسُ، علّني أقتربُ أكثرَ مما يُوشك أن يهجُمَ عليّ، أو ربما سيهْجُم في وقت أخْشَى أن يهربَ مني الصمتُ فلا أسمعُ ما جاء منْ أجْلي، مُلبّياً صمْتي.

لكنْ مَا يأتي منَ الصّمت أيضاً هو شيءٌ منَ الزّمن الذي أعيشُ فيه أو لمعةٌ أحتاجُ إليها. أقصدُ الطبيعةَ، الجسدَ، التاريخ. وهي جميعُها تكْتسب معَ الصمت

وفيه حياةً أقْوى مما تعوّدتُ علَيه. ما ينهضُ، ما يوشْوش. ما ينطقُ، ما يصفُو. ما يخاطبُ، ما يدلّ. ما يحترقُ، ما يتكوّن. ما يعْذبُ، ما يرنُو. كوْنٌ في المادة يتحّرك. ثم كأنّك في صَفاء الصّمْت تُنصت إلَى هذا الكون بالحواسّ كلها، بحثاً عن الاستثنائي.

الصمتُ، إذن، ضرورةٌ. لا بدّ منهُ للكتابة (أتذكّر شروطَ الخلْوة عندَ ابن عربي)، لأنه الطريقُ إلى ميلاد إنسان غريب عنّي، لا أعثرُ عليْه إلا في العُزلة. وهي التي تدلّني علَى المكان الأصْلي، الكتابة. أيْ أن ما يُعيدني إلَى الصّمت هو الرغبةُ نفسُها في الكتابة، بل هيَ الكتابة. لذلك يَلزمُني أن أذكُر لك، بالمناسبة، أن هذا الصمَت متعدّدٌ. ولا يمكنُ اختزالُه. صمتٌ يمتدّ منْ ما قبل الكتَابة إلى الكتابة. يقعُ بينَ خارج الكتابة وداخلهَا. في الصّمت تنشأ الكتابةُ مثلما الصّمتُ في الكتابةِ يدُوم. ذلكَ هو صمتُ الكتابة. إنّه المَابيْن. أوْ هوَ، إن شئتَ، البرزخُ الموجود بين اللامكتوب والمكْتوب. وفي البرزخ أسرارٌ لو اطّلع عليها أحدٌ ممّن لا يُنصتون إلى هذا الصمت لما سعدَ بالرعشة الخالصة، الآمرة بكلّ كتابة. لا شأن لي بمنْ لا يُنصتون. ذلك همٌّ قديم، حيث كنتُ أحافظُ على الإنصات المتبادل أو المتكامل، بيني وبين سوَايَ، مهْمَا كان، لكنّني تخليتُ عن مُتابعة ما جرّبتُ بألَم، بسبب أن المنصتَ يبحثُ عنكَ ولا تبحثُ عنه. إنّه نقيضُ الزبون في المنظُور الحاضر للتجارة والتسْويق. تحررتُ من إنْصات معطُوب. والقصيدةُ بدورها تحَررتْ منْ لوازم زمَن المال والعُنف.

صمتٌ متعدّد. والصمتُ في الكتابة يتجسّدنُ في التّركيب اللغويِّ للبيْت الشعري ذاته، ومنهُ إلى القَصيدة. إن التفاعُلَ بينَ الصمت والكتابة، من داخل القصيدة، فعلٌ ماديٌّ بين الكلمات وفي الكلمات، مفردةً أو مُجتمعة. وبذلك أدلّكَ على ما هو أبعدُ منَ التركيب وأغربُ منَ المعنى. لقد سعَى اللّسانيون إلى ضبط حركة الكلمات داخلَ القصيدة. قاسُوا الطولَ والعرض. أحْصَوا الحروفَ والكلمات

وعلامات الترقيم. تلاعبُوا بالتركيب. وفي النهاية عثروا على هيْكَل عظمي يَنفي الشعرَ وينتفي الشعرُ معه. عهدٌ أسطوريٌّ من الدراسات التي عصفتْ بالمنظور التاريخي أو المنظور المقارن، فـإذا بمشروع الشعرية اللسانية يَصْطدمُ بالهيكل العظمي. فلا شعرَ ولا إحساسَ بالشعر.

أنا الآخَر كنتُ متحمّساً لهذه القراءة اللّسانية. والغريبُ أنّ الضجيجَ هو ما نفّرني منها. ضجيجٌ يطوّحُ بالقصيدة والجسد، مثلما يطوّحُ بالتاريخ والثقافات الشعرية المختلفة. في كل مرة كنتُ أتجرّأ على القناعَات، بحثاً عن حرية لا تُضَاهَى. كذلكَ اخْترتُ بمعْرفة أن أستمرّ في السؤال والتقويض، مبتعداً عن الاختزالات التي تُصيب القصيدةَ والمعرفةَ بالفقر الثقافي. وأنا أدركُ أنني لمْ أعدْ أنفعلُ لأيّ تأفف مهما كانَ مصدرُه.

إذن، هذا الصمتُ، للكتابة وفي الكتابة، هو، يا عزيزي، وجهٌ من وُجوه ما أقصدُه منَ الصّمْت المتعدّد. ويَحْسنُ أن أقفَ عنْدَ وجْه آخر. لأنّ فضاءَ الصمت شاسعٌ، لا ينحدّ. وجهُ صمتٍ من صنْفٍ لا نَلتفتُ إليه في القصيدة. عندهُ أقفُ الآن. من الطبيعي أنْ تكونَ الثقافةُ الشعريةُ، عبر التاريخ، وفي مختلف الحضارات، تُربّي الأذنَ على استكشاف مناطق الجهْر في قراءة القصيدة وإلقائها (أو إنشادها). أصواتٌ متكررةٌ، مخفّفةٌ ومشدّدة. طبقاتُ الفم نتابعُها عبر الجسد ـ الأذن. وهي ثقافةٌ سريعةُ التعلّم، رغم ما تفرضهُ من تمارين معقدة نَتوارثُها بشبه عفويّة عن السابقين، بالوسَائل المتداوَلة في المجتمع. ومظهرُ الجهْر هوَ معيار الجودة والإجادة. فلتفْهَمْ. ولكَ من الدّربة ما يكفي لأن تتأملَ ما قلتُ وتخْبرني برأيك فيه.

لكن الأذنَ تنصت إلى الصمت، كما أشرتُ من قبل. أذْنُ الشاعر تنصتُ إلى صمتٍ لا نَلتفتُ إليه. وصنفُ الصمت هذا هُوَ الذي أرغبُ في وضعه أمامكَ. ذلكَ هو الصمتُ الذي يُحيطُ بالكلمة أوْ بمجموعة من الكلمات. قبلَ الكتابة وفيها وبعْدَها. أجلْ، لكلّ كلمة أوْ مجموعة من الكلمات صمتٌ يُحيط بها، من

جهَات، لا حدودَ نهائيةَ لها. كلمةٌ، كلماتٌ، تتكاملُ مَع سواها في خلق فضاء حسّيٍّ، يشمله صمتٌ عند النطق (أو الإلقاء والإنشاد) وبياضٌ عند الكتابة (أوالنظر والمشاهَدة). قبلَ وبعدَ أن تكتبَ، قبلَ وبعدَ أن تنطقَ أو تقرأ وتنظرَ وتشاهد. هذا هو الصمتُ الذي لا نلتفتُ إليه. كلُّ كتابة شعرية (وكلُّ إلقاء شعري) انتقالٌ للكلام من حالة إلَى حالة مُباينة تماماً. بين الحالتين عتماتُ الإيقاع، الذي لا نعرف عنه سوى أنه نفسٌ مخصوصٌ يخترق اللُّغةَ. ذاتٌ في أقصى حالات انفلاتها من المُجْمَع عليه وانطلاقها الحرّ نحو الشخْصي، الذي لا يتكرّر ولا يتشبّه.

لي هناكَ صمتٌ من ناحية، وكتابةٌ من ناحية ثانية. كما يُمكن لواضع التّرسيمات أن يهمّ بفعْله على ورقة، مثلاً، بواسطة دبّوس يَسيل منه المدادُ الذي يخطّ الحدود. ذلك فاقدٌ لكل قوة على النفاذ إلى بَذرة السّر. تصلحُ الترسيماتُ للمُبتدئين. لكنّها لا تملكُ ما يتعدّى القياسَ، الحدود. وهناك، في ما يتعدى القياسَ، الحدود، يستقلّ السرُّ بنفسه. الصمتُ والكتابة. إن هذا الأمرَ يُقلقني. كلما حاولتُ أن أوضحَ لك تبيّنتُ أن ما أضعه أمامك يتوقّفُ عند أشكال عامة بدلاً من أنْ يعرضَ عليْكَ ما لا عدَّ له. بذلك أختلف عن البلاغة، التي تحتاج لأشكال محدودة مهما كثُر العددُ واغْتنت الصورُ والأشكال. أيْ أنّ الصمتَ في القصيدة هو أبلغُ أنواع الصّمْت. لكلّ قصيدة صمتُها. وذلك هو البطش.

لكن ذلك الصمتَ، الذي لا نلتفتُ إليه، دليلٌ على مَا لا نَراه منْ واقع الجسد أثناء الكتابة، أو القراءة والمشاهدة. جسدٌ متحفّزٌ ومنطلق، في اتجاهات الرغبة والشهْوة والمتعَة. جسد برؤوس متعددة، تختفي عنّا، وجهاً لوجه مع كتابة وما يحيطُ بها حتى تستويَ هي نفسُها جسَداً مستقلاً عنْ صاحبه. وها أنتَ في الصمت، الذي يدلّكَ على القصيدة مثلما القصيدةُ تدلّكَ عليه.

ثم هلْ تتصورُ شاعراً يُلقي (أو يُنشد) قصيدتَهُ وسطَ الضجيج؟ ألا ينتظرُ حلولَ الصمت في جسَد المسْتَمع حتّى يتهيأ لاسْتقبال القصيدة؟ أشكّ في

تكذيب هذه الواقعة، التي تتكرّر مرات دونَ أن نُوليها الاعتبار، في تأملاتنا النظرية عن إلْقاء الشعر (وإنشاده). الكتابةُ أو القراءة (بمعانيها المتفرعة) تتطلّبان هذا الصمتَ، البرزخَ، العتمة. هناك، بطبيعة الحال، من يُرجع هذا الصمتَ المطلوبَ في القراءة إلى البعد الأخلاقي. أيْ أنّ من يودّ الاستماع إلى الشعر عليه، بحسب هذا الرأي، أن يصمتَ احتراماً للشاعر. وأنا أنفصل عن الأخلاقي. ماديةُ الكتابة والقراءة هيَ الأوْلى، في النظر والتأمل. فإن افترضتُ أننا سنأخذُ الصمتَ كعنصر تكويني، ونكفُّ بالتالي عن النظر إلى المكتوب والمقروء منفصلين عن المَصْمُوت، فسأقع على اشتقاق لغوي يمكن أن يفتحَ لي أفقاً مجهولاً للتأمل. بذرةٌ تدوّخُ التركيب وبذرةٌ تدوّخُ التأمل. ألا تستحقّ القصيدةُ رحلةً في الصّمت ومجهُول الصّمت؟

أفضّلُ الإغرابَ، تقول في نفسك. ولربّما رفعتَ قدحاً وترنمتَ بأبيات شعرية لاَ أثرَ للصّمتِ ظاهرياً فيها أو في ترنّمكَ بها. ولكنك مع ذلك ستصمتُ وستنتظر ثانيةً في السّطور التي كتبتُها لكَ اليومَ، تحيةً لرحيلكَ ولاختياركَ البقاءَ وفيّاً على الدّوام للرحيل. تقرأ رسالةً تأتيكَ منّي بطريقة يحضُر فيها صمتٌ لا تنتبه إليْه، كما وقعَ لكَ من قبل. ولربّما تقضي قسطاً من سَهْرتكَ في النادي الذي يلتقي فيه هواةُ القنص. كل واحد يتحدّثُ عن الطريدة وهي تُفلتُ منه، كما يُفلتُ منا الصمتُ في القصيدة أو كما تُفلتُ القصيدة.

أنصتُ إلى صمْت القنّاص، إلى صمت أحْشائه وصمت المكان. حتى الحجَر لا بد أن يصمت. ثم أعيدُ قراءة ما كتبتُ لكَ عن الشّعْر والصّمت.

بَيْنَ أزْرَقَــيْن

.1

بساقين متعجّلتين كنت أصعدُ الرابية. معي كان الهواء يصعدُ والمشهدُ الأرضي بدوره يواصلُ الصعود. قمّةٌ هناك، يعْلُوها أزرق. عيناي عليْها، وما بيني وبينها يتّسعُ قليلاً كي أرَى أنفاسي من علُوِّ الأرض، وكأن ذلكَ يحْدُث تماماً في المكان الذي قرّرتُ في الصباح أن أقطعه صحبةَ كلمات مُبْهَمة. لعل البحثَ عن تلك الكلمات بسماتها لم يكن يشغلني. كلماتٌ وأنفاس تصعدُ التنفسَ، ثم التّنفُّس يصبحُ بارداً ثم لا يكتمل إلاّ بعد توقفات. أنا القادُم من بعيد إلى هنا، في تونس. قضيتُ أن أصْعَد. وأعلَم أن الأمر لا يتطلب بطولةً مَا. إنّه مجرّدُ الصعود إلى رابية، ومن الرّابية إلى أزْرق.

جنوني بالأزرق قديمٌ، لدرجة أني لم أميّزْ تاريخَه بمثل ما أميز تاريخ غيره من الأحوال. أزرقُ يسْكُنني على غرار الأنفاس التي استقبلتُ بها العالم، وعلى مَدى الأيام تآلفْنا. الأزرق وأنا، مهْما بدا لي أنّ الأنفاس بَدوْرها تتبدّل مع السّنوات، أوْ لأقلْ مع تبدلات العمر. أحسُّ بالأزرق مُسْتَتِراً تحت أنفاسي. فيها ومعها يتموج، يسقط أحياناً من صهريج البيوت والأضرحة. وأحياناً هو هناك، في الأفق المحدود

بالتّلال والأشجار. ما الذي يمكن أن يحدُث لو أنني امتزجتُ بالأزرق؟ كنت أسألُ نفْسي في لُطْفٍ، ولا يُفارقني السّؤال كأنّهُ وشمٌ به أرْصُد أنفاسي.

.2

ذلك الأزرقُ هو هذا الذي أصعدُ من أجْلِه، اليومَ، رابيةً تكادُ تخلُو من المارة ومن عجائب الطيور. قدماي مُجْهَدتان. والصعود، الفَوْقُ، هو ما أرومُ بلوغَه، من أجل الأزرق الراكض في أعضائي. لا مفرَّ، أنت تدركُ أن هذه الرابية ممتلئة بأطياف هنا حفَرتْ تاريخَها وانصرفت. أزمنةٌ متوالية مرّت من هنا، ومرّت أجيال ليتواصل الصعود. أزرقُ في العلو الذي هو صديقُ العَابرينَ، الصّامتين، الصابرين، المتوحدين. شيء من الذِّكْر في الأنفاس يتكوّن. وبعد ذلك لا تَرى غيرَ الأزرق. تستسْلِمُ للتعب ولا تتركُ جسدَك وراءك. كلما تقدم في الصعود تزايدَ النداء. وأنا أنصاع لمثل هذا النداء الخفيِّ، الذي يُطالبني بالصعود، على مرْأى من نفْسي ومن تعبها.

أستطيع أن أضيف خطوةً إلى الخطوات السابقة. أستطيع أن أبلّلَ صدري بالرحمة وأصعد كما يفعل أيُّ صاعد إلى قنّةِ جَبل وفي عينيه شبهُ بخَار. أنا الآن مكتملُ الهيئة. رجْلان متحركتان، جذْعٌ مستقيم ورأس تضرب في الهواء. أشكو قليلاً من التعب، مع ذلك لا أتوقف. لأجل هذا الصعود، يمكن لجسدي أن يتهيّأ لكنّه لا يتراجَعُ في اللحظة المناسبة. ما الذي يطوفُ بي في الصُّعود؟ هل ثمة شيءٌ غيرُ الأزرق في عُلوٍّ أم أن هناك رقصةً بقدمين حافيتين؟ أجرُّ الكلمات، كما أجرُّ تداعيات معي تصعد. وفي الأزرق سرٌّ مَا. والحقيقةُ أنّني أتجنب التفكير في السِّر. لا. الأزرقُ وحده عارياً من كل أسرار. رابيةٌ وصعودٌ وأزرقُ. أكاد لا أتذكر مَنْ تقاطعْتُ معه وأنا أصعدُ، لكنّ أنفاسي كلّها لا تزال مثبّتةً في ذاكرتي.

عندما أقول الرابيةَ لا يعني ذلك أنني أخصُّ رابيةً بعينها. لكل وقت رابيتُه.

مع انتقال الأوقات تنتقل الروابي من أمْكنَتِهَا عبر بلاد ومناطق. وفي واحدة منها أكتشفُ شكلاً فريداً للرابية. وأحياناً تأخذ الرابيةُ شكْلَ هضبة أو شكل جبل وهي جميعُها رابيةٌ ما دامت الرابية في اللغة تعْني الارتفاعَ والإضافةَ والزّيادة. لهذه المعاني التكاثُر المتراكمُ عُلُوّاً في الأرض، التي تفقد استواءَها وسهُولَتهَا. تلك هي الرابيةُ وقد أخذت تنْتَشِرُ. بضعُ فراسخَ، وفي المدى ما يجعلكُ تشاهد السهْلَ تحتك مُنبسطاً ونائماً في عَراء العشب أو في جَريان الماء.

.3

سأكذب على نفسي لو ادّعيْتُ أنني لم أخططْ من قبل لهذا الصعود. ناديتُ على الصديق قاسم حدّاد واقترحتُ عليه مُصاحبتي إلَى الأزرق. أبْدَى تعجُّباً، ثم وافق على التوِّ. لن يضيّع وقتاً في سُؤال يفتقد كلّ معنى. فهو متعوّدٌ على مثل هذا المجهول الذي أفاجئُه به، من حين إلى حين. كان علينا أن نحافظَ على الكتْمان. فما نحن نتوجه إليه لا يَستدعي إعلاناً. هل الذهاب إلى الأزرق فعلٌ مُشَاع؟ وهل هناك بالضرورة ما يُوجب علَيْنا نقل الاقتراح إلى غيرنا؟ لا شيء من ذلك. كل شخص يمكن أن يختار طريقاً ليست هي بالضرورة ما يختاره غيرُه. والصعودُ إلى الرابية قد يكون غيرَ مشجِّع لمن لا يعيش حَالةَ الأزرق.

جسدَانَا منتشيَان، خفيفَان. والطريق التي نسْلكُها مناسبةٌ للرؤية من بعيد. حيطانُ البيوت والمحلات تتخللها خضرةُ الأشجار. هي خضرةُ الخطوات الأولى نحو الأزرق. خطواتٌ وئيدةٌ. ربما، وهي أيضاً راقصة. كنت أنصتُ للسّاقيْن ولطَرقَاتِ الحِذَاء. إن الأرضَ تكسُوها ألوانٌ تتداخل، تنبسط، تتفرّق. ولأقدامنا قدرةُ المحافظة على الحركات المتكررة، كما لو كانت حركات مشَّائين تعوّدُوا على قطع المسافات ذاتها كي يتأملوا حكمةً قديمةً، أو يُتقنوا فنّ الحوار في صورة لم تنضُج بعْدُ.

.4

تلك الخطواتُ قادتْنا منْ ضَجيج الشوارع إلى مطْلع الأزرق. قطعةٌ من السماء تخرج من بين البنايات والأشجار. ومع ازدياد الخطْو بدأ الأزرق في الاتضاح عند العُلوّ القريب من أقدامنا وأنفاسنا. لا تُسرعْ أبداً. هناك العلو، الذي يتّجهُ نحونا ونحن سائرون إليه. لكل خطوة نشيدٌ كنا نجهله من قبل. وبقدر ما كُنّا نرتفعُ مع الرابية بقدر ما كان النشيدُ يغسل أعضاءنا. لقد أتينا من عُصورٍ قديمة لأجل ألاّ نترك الأزرقَ وحده مُعلّقاً في العلُوِّ. إنّه لحظةٌ من لحظات الابتهاج والصّمت. ماذا نريد أكثر من ذلك؟

كُنا نصعد على جانبي الطّريق. فراغٌ لا ينحدُّ. ولكنه مع ذلك فراغ أليفٌ. ننادي عليه بوَشْوشَات من صَدى أعماقنَا ولا نتوهّم شيئاً. مثلاً، لا نطلب من هذا الفراغ أن يكون دليلاً علينا. إنه النقطة التي تفرّعَتْ وامتدّت. نقطةٌ واحدةٌ هي نفسها هذا الفراغ. والرابية التي نصعدها مسْقُوفةٌ بالأزرق والفراغ. تلك الخطوات التي جرّبْناها، من قبل، هي الخطوات نفسُها التي ترتفع بها سيقانُنا إلى علُوِّ الرابية، ونحن في منتصف الأزرق. سماءٌ مفتوحة على سَماء، سبع سماوات. لكنّنا، لمْ نَرَ غير سماء واحدة. وللأزرق طبقاتٌ. كان بإمكاني أن أمنحها أسماءً مقدسةً، مع ذلك تراجعتُ. فالأزرق مسكونٌ بأسرار لا نُدركها، عند الوهلة الأولى.

.5

صديقي قاسم أراه ضاحكاً. ومن بين شفتيه تتشكّل حركاتٌ. هل هو الهذيان الذي لا نبلغه إلا مجاهدة أم هو مجردُ كلمات ينقُصها البوح؟ في الصعود نكون أكثرَ اهتماماً بالصامت بنَا وفينَا. سأدع صديقي مُستسلماً لما يتشكّل بين شفتيه. والوقتُ لم يحِنْ بعدُ لرؤية الأزرق كما علينا أن نراه. تنقصُنا خطواتٌ. في هذا العلُو مرتفعٌ خفيف. وبعده حدّةُ ارتفاع. نتبادلُ النظراتِ، قاسم وأنا، ونحن نقترب

من الأزرق الكليِّ هناك، في تلك القمة التي جاءها تائهٌ في القديم، وبصَمْته سمّاها بما شَاء. وأنا أسمّيها نقطةَ المحْو.

تصْعد أقدامُنا، دائماً تصْعدُ هذا المرتفعَ الخفيف. رابيةٌ منها عبرَ أمواتٌ ولم يلتفتوا إلى ما تركوه خلفهم. كانوا منشدِّين إلى سَبْع طبقات، وليس لي منها سوى سماء بأزرق كلي. وها هي أمامي كي أحدقَ صامتاً فيهَا، في العناصر التي تقدّمها لِي. أزرقُ للقريب والبعيد. يمكنني أن أقيسَ هذا المدى بتموُّجات الأزرق. في كل لحظة يمكنني أن أعاود الرؤيةَ حتى تتبدّد أعضائي، وفي كل لحظة أنسى الذي حدثَ من قبل لأجرُأَ على تغيير موقع الرؤية. هي ذي لحظةُ الوصول الأولى.

لقد بلغنا قُنّةَ الرابية. وضع قاسم حدّاد يده اليمنى على جدار يغطيه بياضُ الجير. بالقُرب من الجير أزرقُ الباب. أزرقُ الأوتاد الحاملة للسّقْف. أزرقُ القُبّة. مصراعان للباب. والأزرقُ عليهما يسيل متموّجاً. يمكنك أن تلمسه قبل أن تستطيعَ لمس أزرق السماء. وهما معاً يتمازجان، عبر أفق بَحْريٍّ يمتد بيْنَ بقايا اليابسة وطبقات الأزرق السماوية. هناك، بينهما، نقِفُ الآن، على علوِّ الرابية، شبهَ منذهلين. ما الذي يُحدثه الوقوف بين أزرقين في نفوس تائهة؟ أُغمضُ العينين، فإذا بالأزرقين يلْتقيان. اهْجُمْ على البقايا المتكلّمة فيك كي تراني. وكما نشأتُ أنا فيك، لا تكترثْ بغير الأزرقيْن على لسانك، مهما ضؤُل الكلاَم.

يُلقي قاسم جسدَه على الأرض. فهو يَغْشَى أزرقين، وعليه ملاءةٌ تتكاثر رسُومها. يلقي برأسه إلى الأرض ليشربَ من هذين الأزرقين، معاً، في صباح بحريٍّ على علوٍّ من الوَطَاء. يداه منبسطتان. زفراتٌ تتخللها حروف متقطعة، يتخلط فيها اللاّم بالهَاء. والعينان مغمضتَان. نحن معاً في حضرة أزرقين. أُسْندُ ظهري إلى الجدار. أمامي امرأتان واقفتَان وقوف المتخشّعين. وحولي كتابات تدُور. خطوطٌ بأحجام وأشكال متعددة. ألواحٌ عليها ما كنتُ قرأت، مرات. وهْيَ لا تغريني كثيراً. أنا الذي أتيتُ من أجل الصمتِ في حَضْرة الأزرق وجدتُ نفسي

بيْنَ أزرقين.

.6

أزرقان وكتابات. أجلْ. تفْتنني الخطوطُ. وحتى ما كنتُ قرأتُه من قبلُ لا يدلُّ دائماً على أنني أدركته. ألمْ تعلّمني القصيدةُ تواضعاً أمام أسْرارها؟ بيتٌ واحد يمتلكُ أحياناً سلطةً لا فكاك من أسرها. أزرقُ السماء. أزرقُ الباب، النوافذ، السقف، الأوتاد، العتبة. وبينهما صمْتي. تلك الكتاباتُ عليّ تنادي أنْ تقدّمْ. تقدَّمْ أيها المغرورُ الذي سقطتْ عليه زرقةٌ ذات يوم فلم يُعدْ يعرف ما معنى طبقات السماء. تقدّمْ في عِزِّ الصمت وُطفْ بي كما أطوفُ بكَ. توحّدْ بي وافْتَحْ صدركَ تَرني بما لم تتعوّد على رؤيتي به، أيها المغْرُور.

هكذا تقدمتُ من الجُملة الأولى. بعيْنِي قرأتُ، ثم بعيني قرأتُ الثانية والثالثةَ. لم تتوقف عيناي. وأنا أستمرّ في تكرار الجملة، كما لَوْ لَمْ أقرأها من قبلُ قطُّ. مساحةً زرقاءَ تتحول الكلمات. والأزرق الذي رأيته عند الوصول إلى الأعلى يغيّر المكان. عيناي على أزرقين. لم أفتّش عمّا كنتُ أعرف. تركتُ جسَدي بمفرده يستكشف هذَيْن الأزرقين الشبيهين بالكلاَم. أطوفُ بالمكان وأنا أطوفُ بالكتابات. أسمعُ نفسي تؤنّب نفسي. أسمعها تفتح مزلاجاً وتنفصل عني. هناك أمامَ سماء وأبواب بين أزرقين.

.7

أزرقٌ سماوي، أزرقٌ بحري. وورائي زُرقتان من كلمَات. هذه الفسحةُ من الأزرق هي ما يأخذني هذَا الصباح في عُلوّ متوسّطي على أرض تونسيّةٍ. من هذه الأرض عبَر تائهٌ ذات سنة من قرن مضَى فترك لي ما أبلّل به عظَامي. صديقي هو الآخر مأخوذٌ بالنشيد. زرقةٌ كان يُهديها أعزَّ ما لديه من كلمات. ثم ها هو يعودُ

ثانية إليْها ليتذكر أنّه من الزرقة جاء وفيها يقيم. لن يتخلّص أبداً من الزرقة التي غمرتْه وألقت به صامتاً بين أزرقين. حكاية كل واحد منّا مع الأزرق تختلف عنْ غَيرها. وهو اليومَ لا يدري إنْ كان ما يعيشه مُجردَ انتعَاش أم طائفةٌ من الحمى. لا يدري البتّة، وأنا بدوري أمجّد حيْرته وأُفْسحُ له في الوحدة.

ربما كُنا أتيْنا إلى هُنا، نحن معاً، لنعْقد حِلْفاً شعْرياً مع الأزرق، بعد أن سبق لكل واحد منّا أن عاشَره في صمت بعيد. كان الأمرُ في البداية مجرّدَ لقاء في أزرق متوسِّطي، لا معَهُ، بل فِيه. وها نحنُ معاً نتفاجأ بسر آخر من الأزرق، وهو يتحول أزرقين. عندما اقترحتُ على قاسم حدّاد أن نمضي معاً، لَمْ يخطُر على بالي أن الأزرق يمتلكُ كل هذه القوّة في عُلو متوسطي. كنتُ أعتقد أن الأزرق مُشعٌّ. وهذا بحد ذاته يستحق الزيارَة. لكن ما حدَث لنا هُنا شيءٌ مختلفٌ. وتلك حكمة أن تصْعدَ، صباحاً، بين بنايات وبيوت حتى تبلغَ الأزرق في سماء متوسطية، لا تزال تحتفظ بأثر العابر في الزّمن القديم.

8.

ذلك العابرُ مَغْراويّاً كان. من شعاب جبال شمال الريف المغربي وفَد. ولم يكن يملك ما يتصدّق به على الجياع من أهل المدينة الملتصقة بهذه الرابية المتوسطيّة. كان طالباً للأزرق فشمله الصمتُ. وكان فقيراً فاجتمع حوْله الفقراءُ ولم يفارقُوه. ذكّرتْنِي بكُلّ ذلك سيدةٌ عجوز فجأة سمّتْهُ جدِّي لمجرّد أنّي مغْربيّ. وأنا لا أنتسبُ إليه. إنه العابر الذي أبحثُ فيه عن الأزرق بعد أن صاحبني صديقي إلى الرابية، هناك حيث التقيتُ بالسيدة العجوز وهي تحمل قُفّة وتكاد تشْهَق.

لن يفهم أحدٌ سبب صعودي إلى أعلى الرابية. وأنا الآخر احترتُ كيف صادفتْني سيدةٌ تذكرني بماض لم أكن أتبيّنُه بما يجب من الوضوح. عليَّ هنا أن أفْصلَ بين حُدود الأزرق، وهو ما لن أفلح فيه. فما يُداهمني، عندما أقابل الأزرق،

أبعدُ من أن أرغب في اختصاره في زمنٍ أو اسم أو نسب. ما أرغبُ فيه هو ما لا أعرفه اليوم أو لن أعرفهُ غداً بسبَب ما يتخّلل كلماتي وأنا أحاول أن أتابع نُقْصَانها من غير مهادَنَة. موسيقى تتسرب إلى أعضاء الكلمات، وهي أَنْفَسُ ما يتجلَّى في أسفلِ ما نحسه ولا نقدر مطلقاً على ضبطه، حتى ولَوْ كُنا من أهل الأسرار.

.9

هذا الصباح. كتابةٌ أخرى وردَتْ عليَّ في العلُو الذي لا يعْدُو أن يكون علُوّاً، تُرابيّاً، مكاناً متوسطياً، تونسيّاً. بذلك أتخلّى عن كل علُوٍّ ملتبسٍ لأضيعَ في المكان. وهو ما يؤاخيني معَ أزرقين، هذا الصباح.

وعليَّ أن أتابع مجْرى الكتابة بين أزْرقين. وعدتُ نفسي مرّاتٍ أن أكفّ عن سوى ذلك. وحين يلُومني قاسم حدّاد أنصتُ إليه لا مبرراً، بل مؤكّداً أن هناك ما يرغمني أحياناً على الانصياع لغير ما أنا أومن به. انصياعٌ حذِرٌ، يدرك أننا لا نختار على الدوام ما نفعل. بين الاختيار واللااختيار ترتطمُ نفوسُنا باليومي السائدِ الجبّار. وفي الشقوق نسْعَى، كي نقيمَ بين أزرقين.

الرَّحِـــيل

.1

يَبدأ الرحيلُ في مكَان مجْهُول منْ جسَدي. نداءٌ خفيضُ الصّوْت يصعدُ، كما تصْعدُ أغْصَانٌ سكرانَةٌ، في صَباح ماطر، إلى أعْلَى الأنفاس. صوتٌ مطريٌّ يلعب بهَا، يحرّكُها كيْ لا تنام. وفي كُلّ حركة عجبٌ. هل أنَا بحاجة إلى السّكينة؟ هل هَذَا الصباحُ بابٌ منْ أبْوابها؟ أسألُ نفْسِي بريْبةِ الكَلِمَات في الصّوْت الّذي أخذَ على حِين غرّةٍ ينْبعثُ منْ أسفَل الصّدْر. تلك جمرةٌ ربّما كانتْ ذاتَ يوْم قد اتّقدَتْ وتحتَ رمَادها الصوتُ لا يَزال يهْذي. يعودُ بالهَذيَان في الصّباح، معَ المطرِ وهَواءِ البحْر والطّرَقَاتِ المعْهُودةِ، التي لا تتوقّفُ إلاّ لكَيْ تعُودَ مُحمَّلةً بذكْرَى السّحَاب.

أسْأَل نفْسِي عن هذا الصوْتِ الذي يعودُ مع الطَّرقَات في المطَر. ولا يغْنِيني الجوابُ. المطرُ والصوتُ الّذي يرتفعُ معَ الأغْصَان إلى المنْطقة الّتي لا أراهَا من النّافذة. هناكَ الزُّجاجُ الشفّافُ والسّحابُ المتراكمُ كمَا لوْ كَان جبالاً معلّقَةً في الهَواء. أحبُّ الجبَالَ في سمَاواتٍ. تحْتَ السّماء طبقاتٌ منَ الرَّماديِّ. والفجوةُ، التي تظْهَرُ حيناً بعْد حين في اليَدِ، تُقْبلُ على الكتَابَةِ معَ السّحابِ والصّباحِ، في أوْقَات هيَ حياتي التي أفْرَحُ بهَا.

لكنّني اليوْمَ على موْعد معَ الرّحيل. أستَغربُ منْ هذا الصّوت «الرّحيل» ولا أعرفُ بالضبط إلى أيْنَ. بقُربي، في المحمدية، ميناءٌ وفيه ترسُو سفُن. على باب المينَاء الجمَاركُ والأعلامُ والرّصيفُ والسُّلّم الذي يصِلُ الأرضَ بسطْح السّفِينَة. لكنْ كُلّ هذَا لا يُؤدِّي إلى الرحيل الذي ورَدَ عليَّ صوْتاً هُو المتفرّد. أَسْمَعُه في لحظات مُفاجِئة لاَ أضبطُ أوقاتَها ولا أعرفُ كيْفَ اختارَتْ أن تهزَّ غُصناً من أغْصانِي وترفَعه إلى أعْلَى سماوات، على شكْل صوْتٍ، خفيض. يعُودُ الصوتُ منادياً عليَّ. «الرحيل». وأنَا لا أدركُ منْ أمْرِي شيئاً سِوَى ما أسمعُ. صوْتٌ يتلاحَقُ. الرّحيلُ. الرّحِيل.

.2

لنْ أتخلّى عن الإنْصات إلى هذَا الصّوْتِ. قلتُ سأجْلِسُ قريباً منَ النّافذَةِ لأقْرأَ السّحَاب. ذلكَ ما كنتُ أُتقِنُه. وهَا هُوَ السّحابُ في الصّبَاحِ يتجلّى معَ مطَر وصوْت. سَحابٌ، بل تاريخٌ لَهُ دهْشةٌ أكيدَةٌ. أعْنِي أنّني لا يُمكنُ أن أضعَ تاريخاً للسّحَاب. السَّحابُ لا ماضِيَ لَهُ. يصعُبُ التفكيرُ في علْم آثار السّحَاب، مثلاً. يصعُب أنْ نكتُبَ تاريخاً لأشْكالٍ من السّحاب كانتْ على هيْئة بُنْيانٍ ثمّ في التشكُّل ذاته يحْضُر اللاّتشكّل، التفسّخُ، الانحلال. كيْفَ إذن يزعُم شخصٌ أنّ علْمَ آثار السّحاب ممكنٌ وهو يعْلَم أن السحاب بلا أثر؟ يعيش السّحابُ خارج الزمن. لا يشيخ ولا يتقَادَمُ. يتكوّنُ كيْ يتلاشَى، ثم يتكوَّنُ، من جديد، كما يشَاءُ في لحظاتٍ لا زمنَ يسْبقُها ولا زمن يلْحَقُها. السّحابُ هُنا يتحدّى النّباتَ. الأشجارَ. الزهُورَ. الأعشابَ. بل يتحدَّى حتى الصّلْبَ كالصُّخُور.

السّحابُ والماءُ يتكاملان في تحدِّي الزَمن. هُما معاً يتحدّيان الطفولةَ والشّيْخُوخَة. الحاضرَ والماضي. الجديدَ والقَديم. يتكوَّنُ السّحابُ في لحْظةٍ ثم ينحَلّ هادئاً بدُون أيّ علامة من علاَماتِ الفَجيعَة. لا بكاءَ ولا ندْبَ. لا طقوسَ للبِدايةِ أو

النّهايَة. مع ذلك يهلّلُ النّاسُ للسّحَاب. يفْرَحُون. عنْدمَا يُقبل في أرْض تنْتظِرُه في المَوْعِد الذي يعُودُ فيه، منذُ الزمن الذي نعْجزُ عن حِسَابه. من عُهُودٍ مُتقادمَة يعودُ السّحابُ كَما كانَ أوّل مرّةٍ. هادئاً، رماديّاً. وبطبقاتٍ هيَ سُلّمُ الرّماديِّ الذي يُعْتِمُ ليُصبِحَ قاتماً في حركَاتٍ وَئيدةٍ تتْبَعُ حرَكاتِ الهَواء.

.3

أسْألُ نفْسِي عن الرّحِيل والسّحاب. هلْ ثمّةَ صُدفةٌ مَا؟ هَلِ السّحابُ مَا جعَل صوْتَ الرّحيل يعودُ أمْ أنّ صوْتَ الرّحيلِ مَا قادَني إلَى تأمُّل السَّحَاب؟ أحببتُ هذه اللُّعبَةَ، لا لأنِّي شغُوفٌ بالأسْئِلَة فقط، بلْ لأنّني أجدُ شيئاً قريباً إلى جَانِبي يضْحَكُ، يلْهُو، يترامَى فِي الهَواء. الرحيلُ والسّحَابُ وأنا. لا أفكّر في مصيرِ أسئلةٍ كَهذه الّتي أعثُر فيهَا، مرّةً بعْدَ مرّةٍ، على لَذّة مُفْتَقَدةٍ في الحَيَاة اليوميّة، عابثاً بالزّمَن، واضعاً يدِي على حَافَة النّافذَة. أضْحَكُ منَ اللاّشيءِ الذي هُو ما يمْتَلِكُني.

أنا جالسٌ، وأفكّر في الرّحِيل. الرحيلُ إلَى أيْنَ؟ ومِنْ أيْنَ؟ أحسّ بالرّحيل مفْتُوحاً على طريقٍ. وَالطريقُ هواءٌ وشسَاعةٌ منَ الأمْطَار. يحْسُن بِي أن أسْعَد بهذا الصّباح الذي ورَدَ عليَّ كما ورَدَ الصوْتُ مُتشكّلاً في كَلِمَة «الرّحيل». كلمةُ «الرّحيل» دلّتْنِي على مَا أحسُّ بهِ. لمْ أكُنْ بدُونِهَا لأعْرفَ أنّني مُقْبلٌ على حَالةٍ هيَ سماعُ صوت ينادي عَليّ بأن أرحل. فيها كانت الحالةُ تتألّف طبقةً، لاشيْءَ قبْلَها أوْ بعْدَهَا. حالةٌ منقطِعَةٌ عن الأيّام. زمنٌ يتلاشَى. وزمنُ الرّحيل كلمةٌ تردُ عليَّ. في الصدر أصداءُ غامضةٌ لا أعرف عنْها سِوَى أنّها أصداءُ تأتي من مجْهول لن ينْكشِفَ لي سرُّهُ. وكذلك يجبُ أنْ يبقَى، سرّاً متعذّراً على الانكشاف.

هيَ ذي الحالةُ تَسْتولي عليَّ، في الصباح، مع المطَر والسّحاب. الهواءُ باردٌ والهبوبُ يتّزن. يُمكنُ لي أنْ أستقْبلَه في الغُرفَة من نَافذَة مفتُوحَة علَى الهَواء. بين أرض وسمَاء. هذا الهواءُ يسْلُسُ في الجرَيَان ولاهبوبَ. لاَرياحَ ولا عواصفَ.

هواءٌ هو نفْسُه بدُون ماضٍ وأنا أرى كيْف أنّ الماضي لا معْنَى لهُ عنْد مُلاحظَة السّحَاب، المَاءِ، الهَواء. هذا يُفرحُني، في الصّباح. ما لاَ تاريخَ له، لا ماضيَ. أبداً حاضرٌ يتكوّن ثم يتلاَشَى. ألَيْسَ ذلكَ ما أنصرف إليْه فِي الكتَابة عندما أنفردُ بعمَلٍ وأتنفّسُه برئتيْن هادِئتين؟ كلُّ كتابَة تنْفي الماضي. والكتابةُ هي ذاتُها الهَواء، السّحَابُ، الماءُ. حاضرٌ مُسْتمرٌّ هي الكتابَةُ. نفَسٌ. وعلى الصّفحَات لا تتعرّفُ على ماضٍ مَا. مهْمَا علَتْ أوصافُ الزّمن فأنْتَ في حضْرةِ ما لاَ يسْتَسْلِمُ للماضي. الأزمنةُ كلُّها في السّحاب، كمَا في الماءِ والهوَاءِ. ثمّ الكتابةُ رحيلٌ في الأزمنة التي هي حاضرٌ لا تنتهي اسْتمرَاريتُه.

لوْنُ السّحاب الرماديُّ، السرُّ الذي أعْجزُ عن الإمْسَاك به. رماديٌّ فقط. معَ ذلك فهُوَ لاَ نهائيُّ الطّبقات. لانهائيُّ التشَكّل، تركيباً وتوْلِيفاً. هل أقُولُ نظْماً ؟ هذا مُزْعِجٌ. ليْسَ ثمةَ إرَادةٌ في تأليف السّحَاب. هناك عنَاصِرُ تتدخّلُ في التوْلِيفِ، ولا شيْءَ غيرُ هذه العناصِر التي تلْتقِي لتُشكّل السّحابَ في أوْضاع لا نهائيّة وتشكّل الرّماديّ، في الدّهْشَة. إنّ الرماديَّ ليس رمادياً. هُو ذهبيٌّ. ضوْءٌ منَ الرّماديِّ يلْمَعُ في جوْفِ سحَاب، يرْحَلُ معَ الهَواء ليتفسّخَ، ينْحَلّ قبْل أن يرتدّ إليْكَ طرفُكَ، أيُّها الرّائِي، الذي يجلسُ والنافذةُ قريبةٌ منْ جسَدِهِ الهادئ في الصّبَاح.

.4

ليكُنْ كلُّ ما أرَى لهْواً. قطَعٌ متآلفَةٌ مؤلّفَةٌ في الهَواء بيْن سماءٍ وأرض. صوتُ الرّحيل. أنْسَى ما جئتُ منْ أجْلهِ إلى الغُرْفَة، ولا أهتمُّ بمَا ينتظرُني. سأنصتُ إلى صوْتِ الرّحيل وحْدَه في الصّدْر يتكوّنُ كلمةً كنتُ أسْمَعُها منْ قبْل. وهْيَ، في هذا الصّباح، تعْبَثُ بالتّاريخ. طبقاتٌ رماديّةٌ ملْسَاءُ لا تاريخَ يُوجعُها. هيَ هُناك في العُلُوّ الذي لا يعْلُو. علوٌّ في مُستوى البَصر. وحركَةُ العُنق أفقيّةٌ. أنظرُ إلى السّحاب ولا أعرفُ بالضّبط أيْنَ أنَا. يمّحي الماضي في هذهِ اللّحْظة التي أنظرُ فيهَا

إلى السّحَابِ. أُلاحظه بمُتْعةِ الطُّفولة وفَراغ الأوْقَات.

يُمكن أن يكونَ الماضي وهْماً. لا أكتُبُ هذهِ الملاحظةَ على ورَقَة، كَما لاَ أدوّنُها على صفْحَة. هي منَ الدّواخِل تأتِي كما يهبُّ الهَواء، خفيفاً علَى وجْهِي. وأنا أسْتَقْبلُه من النّافذة. بيْنَنا تواطؤٌ مَا. علوٌّ في الهَواء. سرٌّ آخرُ لا أُدركُه. وهذا مريحٌ جدّاً. ألْيافٌ تستقبلُ الهَواءَ، والعينُ على السّحاب الرماديِّ، وعلى الطبقاتِ المُتشكّلَة من درجَات السّحاب، في العُلُوّ الذي لا يْعلُو. صباحٌ في الصّباح الذي ينْسَى الماضي، الليلَ السّابقَ على الصّباح، الظهيرةَ التّي ستحُلُّ بعْد لأي. وذلك كلُّه من فعْلِ السّحابِ، الماء، الهواءِ، الكتابَة.

وأقرأُ السّحَابَ، بالطّريقة نفْسِها التي أقرأُ بهَا صفحةً من كِتَاب. سحابٌ وحْدَه لا يشْغَلُني. ولا نظامُ الطّبيعة، أو الفصول. بل لا أركّز على شيء. هُوَ السّحَابُ يرْحَلُ في ألْيَاف أعصابي، ينفُذ إلى الدّواخل التي تستقبلُ السّحَاب مُشَكّلاً في درجَاتٍ منَ الرّمادِيّ. فجواتٌ ضَوئيّةٌ. ذهبيّةٌ. وفي الهَواء السحابُ يتحرّكُ نافياً للماضي. شقوقُ السّحاب. الفجواتُ. الضوء. كلُّ هذَا يجْعَلُني هادئاً وأنا أنصتُ إلى صوْت الرّحيل مُتحدّراً من منْطقةٍ مجْهُولَة. أعرفُ أنّه ليْسَ نداءً منْ خارِجي، لكنّني لا أُجزم أنّه منْ داخِلي يأتي. بيْنَ الدّاخِل والخَارِج جُسورٌ لا أدْركُها. وفي كلِمَة «الرحيل» أحسُّ بالجسُور، عبر حالة من الضّحكَات الهادئةِ، ومن النظرِ إلى الرّمادي متشكّلاً في العُلُوِّ الذي لا يعْلُو.

.5

صوتٌ منْ أجْلِ الرّحيل. أصْوَاتٌ تلْتئِمُ في كلِمَة واحِدَة لاشيْءَ قبْلَها أوْ بعْدَهَا. «الرّحيل». وأنا لَمْ أعُدْ أسْأل منْ أيْنَ ولا إلَى أيْنَ. الرحيلُ. هذَا مُنْعِشٌ في صبَاح مَطريٍّ قُرب نَافذة لها السّحابُ الذي كان لي علَى الدّوام صديقاً. وأستغربُ كيْف أنّه يعودُ كلَّ مرّةٍ بالكثَافة نفْسِها، بالدّهْشَة نفْسها. أستمرُّ في النّظر إليْه هَادئاً،

يتحرّكُ مُبدِّداً ما كان الجسدُ متورّطاً فيهِ وهُوَ يجْلِسُ أمام النّافذة. أنظرُ إليْهِ لربّما أعثر على نِداء في الصّوْت. على رحيل بين الجسَد والكتابة في صَباح كان يتكوّن، لحظةً بعْدَ لحْظَة، في الكتَابة أو في الخَارج الذي لا يخْتلطُ معَ الدّاخل. شطحةً يكونُ الصوتُ علَى مقرُبَةٍ منّي، وأنا أنصتُ بالهُدوء اللاّزِم في الدّهْشَةِ والصّبواتِ إلَى السّحاب والرّحِيل.

أنفُر من التّفْكير في المُناسبَة. يكْفِي «الرحيلُ». صوْتٌ في أصواتٍ. كلمةٌ مطريّةٌ في الصّباح تهبُّ معَ الهَواء والطّبقاتِ الرّمادية التي تَلْهُو بأنْفَاسِي. وأنا مُتحرّرٌ من الشّكّ واليَقِين، من اللامعْنَى والمعْنَى، من الغُموض والوُضُوح.

مع السّحاب يبْدُو الماضي عديمَ الفَائدَة. جسَداً رخْواً ينحلّ إلَى أصْوات تتآلف في كَلمَة، هي التي تدلّنِي على الهُدوء والدّهْشَة. في صباح الرحيل نداءُ الرحيل لاَ إلى مكَانِ ولا فِي مكَانِ. طبقاتٌ منَ الرّمادي، فجواتٌ الضّوْء. إنّ لكَ الرّحيل في الرّحِيل.

وَمَا لِهَذهِ الحُنجُرَة ؟

.1

ظلماتٌ في نهاية الفَم، هي الحنجرة. ظلماتٌ محْتجَزَةٌ منذ عهود نسميها سحيقة. تلك العهُودُ مرميةٌ مِنْ فوقُ إلى تحتُ، باتّجاه شاقولي، كما كان يصفُها لنا أستاذُ الهندسة في بداية عهْدي بالرياضيات. ظلماتٌ وعهودٌ، وبيْنَها أصواتٌ جاءت من جميع الأمكنة لتظلَّ هُناك. أصواتٌ وظلماتٌ في صراعٍ أحسُّ جروحَه كُلّما انفردْتُ بنفسي. والعهودُ كلُّها مرميةٌ لأنها لا تصلحُ لشيْء.

أنا الآن منفرِدٌ بهذه الظلمات. والأصواتُ، جنباً إلى جنب، في الحنجرة التي تبدو من الظاهر سليمةً ومضيئة. ما الذي يمكن لهذه الحنجرة أن تخفيه هناكَ، وراء مَا يُرى للعين العابرة ؟

سؤالي قد يكون بدُون جدْوَى، لأنّنِي أحسُّ ذلكَ الصراعَ الخفيَّ في الجهة الخفيّة، في ظلمات، لا أحدَ يراها. حتّى أنَا لا أراها. هي هناك، وأنا أغمض عينيَّ حتّى أرى، كما لَوْ كنتُ أضَعُهَا مِنْ وراءِ لوْحَة أشعّةِ س.

.2

أشعّةٌ. غرفةٌ مُظلمةٌ هي حُنجرتي. لو كانَتْ حقيبةً لاسْتطعْتُ فتْحَهَا بهدوء، ولبسْطتُ ما يوجدُ فيها فوق طاولة، مثلاً، أو فوق أرْض جردَاء. أحبُّ الأراضي الجرداء. أحجارٌ، أعشاب، حشراتٌ. وماذا في حنجُرتي؟ أتخيّلُ قليلاً. كيْفَ يمكنُ للحنجرةِ أن تكونَ صندوقاً ويكون الصندوقُ مفتوحاً بيَد أمينةٍ، يدي، أوْ يد أُخْرى؟ المهمُّ فتْحُ الصندوق، ثم إفْرَاغُهُ وبسْطُ متحوياته فوق أرض جرداءَ. أرضٌ لها شكلُ مسْرَح.

إنّني أسَاوي بين السّطوح. فمَا يشغلني هُوَ ما يملأُ السُّطوح ويُظهر الظلمات والأصوات، أحياناً، وهي تتحركُ متصارعةً لكأن كلَّ طرف يوَدُّ أن يتخلّص مِنْ سِوَاه. وأنَا هذَا السِّوَى، جزْءٌ منَ الحنجرة التي أسألُ ولا أعرف.

.3

عنْدَمَا يحدثُ لي أنْ أصطدِمَ بالحُنجرة، وأنَا أحاول جاهداً إخراجَ الأصْوَات منْ رحمهَا، منْ لحظتها الأُولَى، التي تعني ضرورةً أنّها لحظةٌ غيرُ مسبوقة، أنتقلُ فجأةً من الرّغْبَةِ في الكلام إلى الإحْسَاس بالحُبْسَة. ولا أعثرُ على سبيلٍ للتعبير عن هذا الإحساس بغيْرِ السؤال على غِرَار: مَا لهذه الحنجُرَة؟

في تلْكَ اللحظة، الّتي هي الآنَ، الحبْسَةُ، أكون علَى حافّةِ الجنُون. الحبْسَةُ أو الجنون. تتحوّل اللحظة بمشيئةٍ غامضة إلى الحُبْسَةِ أوالجنون. فيهما تدور عيْناي كما تدور لوحةُ الحظِّ الخشبيّةُ في مدينة لألْعَاب. عيناي تدوران، وهما تَجْهلان عنْدَ أيٍّ منهُما ستتوقّفان، عند الحبسة أو الجنُون. فلا يمكن للوْحَة أن تتوقّفَ في رقميْن مرةً واحدة، لا يمكنُ أبداً.

إحساسي قديم. ورغْمَ أنّني ألْعَبُ بالكلمات، فاللعبة التي أمارسُها خطيرة. لي أصابعُ تكتُبُ، فيما هي عاجزةٌ عن رؤية ما يتوارى في الحنجرة. ظلماتٌ

وأصوات. ثُمَّ ما ذا بعْدُ؟ أوْ ماذا قبْلُ؟ إنهما طريقةٌ في قياس الحدث، الحادثَة. نسمِّي ذلك منطقاً أو بُرْهاناً منطقيّاً. وليس لي في الكلمات منطقٌ يتجاوز فراغَ الكلمات، كلّما أقدَمْتُ على الرؤية، وأنا أعلمُ أن الأمْرَ يتعلقُ بخطورةِ اللعبة.

.4

لكُلِّ يدٍ كاتبةٍ لسانُها. وأنَا أكتبُ بلسَاني، ذلكَ اللسان الذي يُريد على الدوام أن ينقلبَ إلى أقْصَى الحنجُرةِ باحثاً عن جملة مركّبة تركيباً سـ . لـ . يـ ماً فإذا هُوَ لا يخترقُ الظلماتِ والأصوات المتصارعة. الحبسةُ وَ/ أو الجنون، في لحظةٍ واحدة. شيءٌ من الصّمْتِ ومَا هُوَ بصَمْت. إنّهُ ظلمةٌ ـ ظلماتٌ لها كلمة جميلةٌ في العربية هيَ «غياهب»، التي كنت قرأتها لأوّل مرّةٍ في عبارة «غياهب الجُبِّ» في النص القرآني، الذي ترك أثرَهُ على حنجرتي.

.5

ما ذا بعْدُ؟ مَا ذَا قبْلُ؟ ها إنّني لا أتنازَلُ، رغْمَ الظلمات، عنْ سؤال هو ربّما طريقي إلى حراسةِ الصمت. ألسْتُ ابنَ الصمت؟ سؤال كثيراً ما أرّقَني، بل كثيراً ما جعلني قريباً من تجارب شعرية، حيث تكون التجربة هي هذا المستحيل المؤسِّس للتجربة ذاتها. وأنا أكرّرُ في نفْسِي: ليْسَ معقولاً أنْ أكونَ عربيّاً وأكونَ، في الوقت ذاته، مُقيماً على حدِّ الحبْسَة. للعربِ الكلام، به يطوّقونَ السماءَ والأرض، وبه تخضعُ لهُمْ أمَمٌ وخلائقُ من الكلمات.

عليَّ ألاَّ أبالي بالخَارج أكثر من اللازم. فالإفلاتُ منَ الظُّلماتِ في الحنجرة غيرُ ممكن. وهو ما عليَّ أنْ أقتنعَ به في الكتابةِ أوّلاً، ثُمَّ لا شيْء بعد ذلك. فعندمَا أتوهّمُ أنّ لي في نهايةِ الفم ضوْءاً، وأن هذا الضّوْءَ نازلٌ عليَّ من نفحَةٍ سماويةٍ أو عبقريّة، يبطلُ ما يتكوّنُ على لساني، ومن بيْن أصابع يدِي ينقذِف.

اللامُبَالاةُ صعبة. صعبةٌ جدّاً. فالعربيّة لا تقبَلُ العجْزَ عن الكلام. إنه إبطالٌ للفحُولةِ عندمَا السماءُ تغيضُ منْ بيْن شقُوقِ الأرْضِ وعندما الماءُ في منابعهِ يَجفُّ. لا يُطيق الناسُ ذلِك. اللعنةُ تحلُّ بالجسَدِ، وصلواتُ الاستسقَاءِ في كل مكانٍ، حتَّى في الحنجرة. كل نفْي للكلام مرفوضٌ لأنّكَ لأجْلِ الكلامِ خُلِقْتَ وعليْه يتوقفُ مصيرُك. لا مصيرَ لك خارجَ الكلام.

.6

في اللّيْلَةِ الأخيرةِ، أيْ قبْلَ سنوات، طرحتُ علَى نفْسِي السؤال ذاته: وَمَا لهذه الحنجُرة؟ كنت كلما اقتربْتُ من السؤال شعرْتُ أنَّ ما يهدّدُنِي هو الكلام. تكلّمْ وإلاّ قتلْتُكَ. نعم، هكذا سمعتُ أكثرَ مِنْ مرّةٍ هذَا الكلاَم يهدّدُنِي، وأنَا لا أعرفُ كيف أتكلّم، لأنّ في الحنجرةِ ظلماتٍ، وفي الظلمات أصواتاً محتجَزَةً هناك. وعنْدمَا حاولْتُ أنْ أقتحِمَ محيطَ الظلمات أصابتْنِي خيبةٌ، لعلّهَا كلُّ مَا أملِك.

تتكرّرُ اللّيْلَةُ، وهي ليسَتْ مِنْ صنْف **ألْفِ ليْلَةٍ وليْلة**. هي ليلة شبيهةٌ بها وأنَا لا ألِدُ الكلامَ. فقط هناكَ الظلماتُ، والأصواتُ في الظلمات، حبسةٌ عظيمةٌ في الفم، ومن الفم إلى اليَدِ. وها أنَا أعُودُ مِنْ حيْثُ أتيْتُ. أعود؟ لا، العودةُ مستحيلة. والتقدّمُ مستحيل. أنا بينهما، لا أعودُ إلى الوراء ولا أتقدّمُ أماماً. بينهُما أقيمُ. تلْكَ هيَ الظلمات.

.7

وعلى عكْس ما أكون بانْتِظَارِه، يَشْتعِلُ اللّسَانُ ويحترقُ. يحترقُ الجسَدُ بكامله. أمامَ عينيَّ يتوالَى الاحتراقُ، ماهراً في خلق أشكاله المفاجئة. وأنا المهاجِرُ بين البلاد أعْلَمُ أنْ لاَ بلاَدَ. الظلماتُ. الاحتراقُ. العطشُ. مَا ذَا يريدُ منِّي هذَا

الجسَد؟ كمْ مرّةً سعيْتُ إلى التخلُّصِ منه فإذا هُوَ لا يتخلّصُ مني. أهاجرُ ولي جغرافيةُ الاحْتراق والعَطش.

وتلك الليلةُ، التي تتكرّرُ في الحنجُرَةِ، تضيءُ وحْدَها. هي ما يُلْقِي عليَّ رداءً أحتارُ في وصفه، رحمةً أو عذاباً. ولكنّي أخرجُ منَ الوَصفيْن معاً، سائراً، مهاجراً، يقود خطواتي المجهولُ. وعندما أسْمَعُ القادمينَ يصرخُونَ في وجْهِي لاَ أغْتمُّ. أرضٌ جرداءُ. وهذَا الصندوقُ. والظّلُمَات.

ملحق



يَومٌ في حيَاة
محمّد بَنّيس*

يومٌ للمُتْعة والقَلق. كانَ يومَ ثلاثاء، من شتَاء هذه السنة. استيقظتُ حوالي الرابعة والنصف صباحاً. إنّه الوقت المعْتَاد، منذ سبْع أو ثماني سنوات، لاستيقاظي منَ النّوم. لمْ أُمانعْ. لجسدي كاملُ الطّغيان. نزعتُ الغطَاء وتجنّبتُ إيقاد النور حتى لا أزعجَ أمامة في نومها. جلستُ على حافّة الفراش، قبْلَ النهوض. النهوضُ المتسرّع يُسبّب لي دوخةً تمتزج بتيار بارد يخترق جَسدي منَ الأعلى إلى الأسْفَل، وأحياناً يُغمي عليّ الحين. بمجرّد ما شعَرتُ بالتوازن في اسْتواء أعضائي وقفتُ وغادرتُ غرفة النوم. نظافةٌ خفيفةٌ ثم مباشرةً إلى المكتب. هِيَ آخرةُ الليل، بيْنَ اللّيل والنهار. صمتٌ صاف كأنه نازلٌ منْ نبْع مجهُول. صفاءُ هذا الصّمت والظلمةُ الكاملة من وَراء النّوافذ ألمحُها. فتحتُ نافذةً لأشمّ الهواء. صمتٌ. والهواءُ يهبّ بارداً من خلَل أغْصَان شجرة الأفوكا.

وقتٌ لقراءَة الأعمال الكبرى. لكنّني في ذَلك الصّباح اخترتُ لسانَ العَرب.

*) النهار، بيروت، نوفمبر 2005.

قراءةُ المعاجم شبيهةٌ بقراءة الأعمال الكُبرى. تلكَ هي خصيصة القراءة، في آخرة الليل. أخذتُ مُجلّداً بعَفْوية. كلّ حُروف المعجم تنتسبُ لعَائلة واحدَة. المعاجمُ هيَ الدّيوان الكبيرُ للغة. وهي هُنا العربيّة. ليْس المعجَم لائحةً (مطوّلة) من الكلمات. إنّه مخْتاراتُ نصوص، موسوعةُ نصوص. يَغويني هذا المجموعُ الذي لا ينْتهي. فتحتُ المجلّد السّميك من طبعة صادر، التي تعودُ إلى الخمسينيات. قرأتُ الصفحةَ الأولى، سَطْراً سطراً. الْتذَذتُ بالقراءة كمَا لو كنتُ أقرأ قصيدةً ذات مقاطع. كلماتٌ غابتْ عَن العربية الحديثة المكتُوبة. تراكِيبُ لا أحد، اليومَ، يستعْملُها. كلمةٌ تنتهي بالبَاء وتبدأ بالقَاف، في لُغة العرب. «القسِيب». صوتُ الماء، تحت وَرق أو قُماش. و«القُسيْبة». شجيرةٌ تُنبت خيوطاً من أصل واحد، وترتفع قدر الذراع، ونوْرتُها كنوْرة البَنفسج، ويُستوقَد برطوبتها كما يُستوقَد اليبيس. كَلمتَان. كيف لي أن أنصتُ، الآن، إلى صوْت الماء هذَا؟ وكيف لي، الآن، أنْ أعرفَ هذه الشُّجَيْرة؟ منْ كلمة إلَى كلمة. لمْ تكن تهمّني القراءةُ السّطرية، بل القراءَة المائلة هي التي كانت تَغويني.

كنتُ أقرأ وأتوقّف بيْنَ الحين والآخر. أفضّلُ هذه الكتابةَ لأنها تُساعدني على اسْتكشَاف مَا لا أعثُر عليه بسُهولة في الكُتب الأخرى. ضوءُ النّهار بدوره أصبح يتكاثر، شيئاً فشيئاً. زرقةٌ تغْشاها صفرةٌ. ضوءٌ يتحرك فوْقَ أغصان الأفوكا. صوت درّاجة نارية. سيّارة اخترقت الطّريق المحاذي للبيت. الوقتُ اقتربَ من الساعة السابعة والرّبع. غَفْوةٌ اسْتولَت على العينين.

عدتُ للفراش. استيقظتُ في الثامنة والنصف. تناولتُ الفطور، تبعاً لنصيحة الطبيب. تَفّاحتان للتّخفيف من المادّة الذهنية في الدم. قطعةُ خبْز من القمح بالزّيت والعَسل. كأسُ أتاي. كنتُ جاهزاً للعَوْدة إلى المكْتَب. هو ذا وقتُ الكتابة. ابتداءً من التّاسعة والربع تقريباً. المكتبُ نظيفٌ ومرتّب. لم أشغّل الهاتف النقال لأنه ينزع منّي الصّمت في الكتَابة. الهاتفُ الثابتُ أحاول أن أتجنّبه في مثل هذه

الصّباحات وأبتعدُ عن كل اتصالات خارجية. أخذتُ دفَاتر الكتابة وفتحتُ الذي أخطّ القصيدة فيه بعْدَ الكتابة الأولية وبعْدَ التّشطيب والتّصْويب. قرأتُ ما كنت كتبتُ يوْمَ الإثنيـن صباحاً. مقطعٌ من قَصيدة شرعْتُ في كتابتها قبْلَ أسابيع. قصيدةٌ تهيّأ لي أنّ عنوانها سيكون هو «ليْلَة الياقُوت». أنَا مأخوذ بالأحْجَار. والياقوتُ حجَر. لكنّه حجَر كريمٌ. فتحت دفْتر الكتَابة الأوليّة وظللتُ جالساً فوق الكُرسي. حملْتُ القلَم لأتلهّى به. لعبتُ بالقلم دُون أنْ أدري. كأسُ الأتاي على يميني. وأنا ألهُو بالقلم. عبرتْ يدي كلماتٌ فأسرعْتُ لتَدْوينها. الكلماتُ العاصفة هيَ سرُّ الكتابة. والثقةُ فيها صعبَة. كلماتٌ قليلةٌ هذه المرة. بيْتٌ وبيْت. أحافظ على عدَم التّساوي بيْنَ الأبيات. علَى الفراغ وعلى بصريّة الصّفْحَة. شطبتُ على نصْف جُملة ثم بدّلت كلمَات بكلمة. وأنا لـمْ أكُـن أرَى سوَى تلك الأبيات التي أكتُبها ببطْء.

في الثّانية عشرة والنصف كـانَ التعبُ واضحاً على ظهْري. قلتُ من الأفضل أنْ أتوقّف حتى أجدَ لاحقاً قوةً جسديّةً لمتابعة كتابة القصيدة الجديدة، أو المقطع الحَالي منَ القصيدة. ثم تذكرتُ أنّني في اليوم التالي ملزَمٌ بالتوجه إلى الدار البيضاء لزيارة طبيب الأسنان، علي القمّاح. وبعْدها عليّ أن أقضي فترة في «دار تُوبقال». وقد لا أعودُ إلى البيت قبل الرابعة أو الخامسة بعد الظهر. تعبُ الأربعاء يتطلّب الرّاحة. والمراسَلات. ومراجعةُ الأنترنيت. ثم يومَ الخميس أحتاجُ لتهييء اليوم التالي، من مُحاضرة الكلية وسلْسلة المواعيد في الرباط. تفكيري في واجبات لا شعريّة يُعذّبني.

تناولتُ الغذاء وأنا أتابع الأخبار من «القناة الثانية» المغربية ثم قناة «الجزيرة». دمارٌ دائماً في العراق. انْتحاريّون. اتجهتُ إلى غرفة النّوم للقيلولة. قرأتُ صفحات من مجلة «سطور» الفرنسية. ساعةٌ تقريباً منْ النوم. ومن جديد توجهتُ إلى المكتبة. كانتْ لي بعْدَ الظهر مُراسلات وقـراءاتٌ. نسيتُ ما كنت كتبتُ في

الصباح. اتصالاتٌ هاتفية مع الخارج ومُراسلات بالبريد الإلكْتروني. كلُّ ذلك تطلب مني الاشتغالَ أكثر منْ ثلاث ساعات. أمامةُ طلبَتْ منّي أن نذهب لزيارة آمال، زَوْجة ابني خليل، بعد عوْدتها من العمل في الدار البيضاء. هيَ حامل. حبّذتُ الطلب. غادرنا البيت بسُرعة إلى بيْت خليل وظللْنا معه وزوجته حتّى الثامنة والنصف. الطبيب مطمئنٌّ على حالتها الصحية وعلى الجَنين. شربْنا عَصير البُرتقال وودّعناهُما.

عُدنا إلى البيت وأنا مُشَوشُ الذهن. يجب أن أذهبَ غداً إلى الدار البيضاء. زيارةُ الطبيب تحولَتْ إلى لُغز. مُشكلُ اللثّة. تناولت العشَاء. بعْدها كلّمني صمويل من لندن فضحَكْنا كثيراً. أحسست بالنّعاس. قُم واسترحْ، قالت لي أمامة. صعدتُ الدّرج إلَى الطابق الأول حيث توجد غرفة النوم. أوقدتُ الضوء الخَافت. رفعتُ كتاباً لأقرأ سُطوراً. لم أستطعْ متابعة القراءة. أطفأتُ النور.

قصيدةٌ تبحَثُ عنْ مَجْهُولهَا*

يكادُ لا يُفارقني تأمّلُ القصيدة التي أراها مُستقبلَ قصيدتي. لكنّ هذا التأمل في مستقبل القصيدة لا ينفصلُ تماماً عن تأمّل ما كتبتُ في رحْلة تعلّم كيْفَ أكتب القصيدة، منذُ أنْ كنتُ شاباً حتّى اليوم. وهي رحلةٌ قصيرة مهْما طالت. أنظرُ إلى نَفْسي وأنا في الستّينيات، عندما كنتُ أزور بانْتظام مَكْتبات الطالعة الصُّغْرى بفاس، حتى لا يفُوتني شراءُ ديوان جَديد للشّعراء العرب المعاصرين أوطَبْعة جديدة لدوَاوين الشّعراء القدماء، الذين كانُوا قريبين إلَى حَساسيتي الشعرية النّاشئة. وتحضرُ أمَامي القصائد الأولى التي كنتُ بها انتميتُ إلَى القَصيدة. عندما أقابلُ تلْكَ الأيام بأيامي الحَاليّة لا أجدُ فرقاً كبيراً. فالانتظامُ والحرصُ هما ذاتُهما. لكنْ ثمةَ دواوينُ تحتفظ بمكانها الأقرب إلَى اليَديْن وأُخرى فقَدتْ ذلك الذي كان لهَا، ومَحلّها حلّتْ دواوينُ من أزمنة ولُغات. بشغَف أتتبّع وأقرأ. وأسْعدُ لحظاتي هي تلك التي فيها أعْثُر على ما

*) أخبار الأدب، القاهرة، مارس 2009.

يُعيدني إلَى السُّؤال البدئي عنْ معْنَى القصيدة. ثمّ ها هُو العطَشُ يصرخُ في عطَش. ما تبدّل هُو فعْلُ المعرفة التي اكْتسَبْتُها. ويبقى أهمَّها الشكُّ في أغْلبَ ما أكتب. فمَع هذا الشكّ أحسّ جسَدي يُولَد في بلَد لا أدْري منْ أينَ جاء ولا كيْفَ، وأعثُر على حواسّي مُهيّأة لاسْتقبَال ما يُحيط بها.

تعلّمُ كيْف أكتبُ القصيدة تجسّد في بحْث القصيدة عَنْ مجهُولها. آنذاك، في السّتينيات، كان عددُ الشعراء المعاصرين المغاربة محدُوداً، ولم يكن أيُّ واحد منْهُم أصدر بعدُ ديواناً، بل حتّى القصائدُ المعاصرةُ التي كانُوا يكتبونهَا كانت نادرةً وغريبةً فيما هي كانتْ مُلتصقةً بقصائد الشعراء العرب الرّواد. كان بحثُ القصيدة عن المجهُول اختياراً للمغَامرة، لأنّه كان اختيارَ التّعَلّم أيضاً من أولئك الشّعراء الذين دلّوني علَى أنّ المُغامرة هي مسكنُ القصيدة. شعراءُ عربٌ وغيرُ عرب، في العَصْر الحديث. ما زلتُ أتذكّر كيف كنتُ أسْهَر حتى الهزيع الأخير من اللّيل مع ديوان **أنشودة المطر** لبدر شاكر السياب، في صمتٍ أقرأه وأعيد. أتوقف عنْدَ قصيدة بعْينها. أقرأها ببُطء شديد لمرّات عَديدة. أنتبهُ إلى عنَاية السيّاب ببناء كلّ بيت على حدَة، بإظْهار كلمَات قديمة أو إخْفَائها، باخْتيار صيَغ عربيّة دون غيْرها، بالجُرأة على اسْتعمَال كلمات تسْتَغْني عن الأفعال، بتبديد أصْدَاء قصائد قديمة وحديثة في قصائده. أقرأُ وأعيد، الأسبوعَ والشّهُور. وفي داخلي رياحُ الكون تمزّقُ الأحشاء. ما كانَ يحْدُث لي معَ السيّاب هو ما كان لي معَ بُودلير أوْ رامبُو أو أدونيس أوْ هُلدرلين. وتوالتْ القراءاتُ كما توالَى اكتشافُ شعراءَ، حَديثين وقُدماء، وعَوالم المغَامرة في قصَائدهم.

لأقُلْ بأن الشعرَ كان حَياتي العميقةَ التي لمْ أتنازَلْ قطُّ عنها. حياةٌ فيها من الصّمت والقَلق أكثرُ مما فيها من فرَح بمقْطع أوْ مقاطعَ من قصيدة. جمالياتٌ كانت تتصارعُ في كتابتي. وكانت الدّعواتُ الشعرية الحديثة بدَوْرها مؤثرةً عليَّ بمثل ما كان الواقعُ، اليوميّ والاجتماعيُّ، السياسيُّ والتاريخيّ. سَعادتي هيَ أنني

لا أنْدمُ على الاسْتجابة لنِدَاء القصيدة، الذي كانَ نداءَ الحرية. كيْفَ يُمكنني أن أخص، اليوم، اكتشافي لروع هذه الكلمة «الحُرية» وأنا أقبلُ آنذاك علَى القصيدة من مَغْرب يخرجُ لتوّه منَ الاستعمار؟ حريةٌ متعددةُ المنارات. حريةٌ نهايتُها هيَ اللاّنهاية. بهذا أعْطي الشّعْرَ مرتبةَ حياتي العَميقة لأنّه اللّغة الأصْفَى التي تُعيدني إلى ميلاد يظلّ جديداً على الدّوام. تلك حقاً سَعادتي، رغْم أنني، بسَبب الحرية التي تعلمتُها من القصيدة، تعرضتُ لعُزلة لا قاهرَ لها. ودائماً أقول: شُكراً للقصيدة.

إذنْ، هي قصيدةُ الحرية وحريةُ القصيدة في آن. كلمةُ الوعْد الأولى. بهذَا المعْنَى كنتُ وقفتُ على وضعية اللّغة في القَصيدة. شيئاً فشيئاً أخذت الكلماتُ تغْمضُ، والتراكيبُ تتغرّب، إيذاناً باللاَمُسمّى. هُنا كان الوعيُ بمعْنَى اللغة في القصيدة ملحّاً عليّ في جُزئيات القصيدة كما في بنائها الكُلّي. لا أقصدُ هنا صدمةَ الاسْتعارة وحدها. أقصدُ، قبل ذلك، الكلماتِ ونوعَ العلاقات التي تجد الكلماتُ نفْسَها متورطةً فيها. وهي أوسعُ منَ الاستعارة. معْجمٌ أنْتقيه حيناً وحيناً يفاجئُني، حذفُ أدوات الرّبط، تحريكُ أسماء باتّجاهات مُتباعدة من الأبيات، ترك جُمل مبتُورة أو الاستغناءُ كلياً عنْ عَلامات التّرقيم، حتّى أصبحتُ وجهاً لوجه مع الحُبْسة اللغوية. لكنّني عثرتُ لاحقاً على الفضاء في كتَابة القصيدة. في صفحة القَصيدة. ذلك ما ضَاعف الشّهوة وسلّمني للانْتشَاء. بيتٌ يفْسحُ في المكان للذي يَليه، ثمّ لا شيْءَ غيرُ البيت. اليدُ التي تخطّ السّطر هي التي تتبادلُ مع الفضاء الغوَاية. وفي حَركة اليد يهتزُّ الجسدُ، ينحلّ، يتشظّى أوْ يطير.

كان الشعرُ العربيُّ المعاصر مقترناً بالصّوت، السّمع، لكنّ القصيدةَ الحديثة خطٌّ، بصرٌ أيضاً. وكان ذلك بارتباط معَ قراءاتي في الشّعْر الأروبي الحديث، ومع أسئلة كنتُ أقرأ فيها بلاَد المغرب والأندلس، من حيثُ هي تاريخٌ وحضارةٌ، أوْ أرضٌ شعريةٌ مفْتَقَدَةٌ في الخطاب الثقافي العربي المتداول. هناكَ كان استرجاعي

الخط المغربيَّ في القصيدة علامةً على استكشاف تُخوم الشّطح حيثُ لم يتعوّد الشاعر العربيّ الحديثُ علَيه. كنتُ أرحلُ إلَى أرض شعرية غيْر معلُومة السّمات. حقاً، أنا منْ بين الذين يعتزّون بأسَاتذتهم الشّعراء، الذين تعلّموا عنهم. وكنتُ تعرّفتُ على الشعر من خلال دَواوين الكبَار، وسعيتُ إلَى أن أتعلّم منَ الكبَار في عصري، شعراءَ وغيْرَ شعراء، مغاربةً وعرباً وغيرَ عرب. بهذا أنا محظوظٌ في حياتي، لأني تعلَقْتُ بهؤلاء الكبار وصادقتُ العديدَ منْ بين الّذين عشتُ في زمنهم. محمد الخَمّار الكنوني، أدُونيس، عبْد الكَبير الخطيبي، عبد اللّه العروي، عبد الوهّاب البياتي، جاكْ دريدا، جَمال الدّين بن الشيخ، محمُود درويش، برْنَار نويل. منْ هؤُلاء تعلّمتُ اختبارَ السّراديب، واقتفَاء أثر عَابر الحدُود، منْ ثقافة إلَى ثقَافة.

لذلك فإنّ بحْثَ القصيدة عن المجهول لم يعثُر ذاتَ يوم على طَريق سيّار. منذُ قصائدي الأولى كنتُ علَى صلَة حميمة بالخطَاب النقْدي والنظريِّ، قديماً وحديثاً. وتبيّن لي عنْدَها أن دراستي يجبُ أن تخدمَ القصيدة، أن تكونَ منْ بين الطرق المؤدية إلى القَصيدة. كنتُ، من جهَة، أترصّد التقاليد التي كان القدماءُ يتوارثُونَها في تعلّم الشعر؛ وكنتُ، من جهة أخرى، أتعلّم منَ الرسّامين والمُوسيقيين الذين يتابعُون دراستَهُم في مؤسسات أكاديمية مُخْتصّة. هكذا حصّلْتُ على الإجازة في الآداب ثم دبلوم الدّراسات العليا ثم الدكتوراة. لمْ أتْعَبْ ولَمْ أنْدَم. اختيارٌ قاس جدّاً. كانَ همّي أن أعمّق معْرفتي بالقَصيدة عبْر تاريخها وتجاربها. أسمي هذا الاختيارَ قاسيّاً، لأنه تطلّب مني التعوّد علَى الجلُوس إلى الكتَاب، وقضَاء أوْقات طوال، صامتاً، أقرأ ما يُفيد ومَا لا يفيدُ القصيدة. مع هذَا لمْ يُنازع الدرسُ العلميُّ القصيدةَ في مكَانها الأسْبق. معرفةٌ أفدت منْها كثيراً. وبهَا كنتُ في بداية الثّمانينيات كتبتُ «بيان الكتابة». أردتُ من «البيان» أن أنبّه على أن من مبادئ «الكتابة» التفاعلَ بين الممارستين النظريّة والشعريّة. مبدأٌ

تتأكدُ لي فائدته أكثر في زَمننا هذا الّذي نكادُ نفتقدُ فيه الشّغَف بالمعْرفة. وفي «البيان» تعرضتُ لما زلت حتّى اليوم متشبثاً به، أقصدُ تصوُّر القصيدة في ضوْء رؤية تنْبني على مَاديّة الكتَابة، أيْ أنْ لا شيْءَ وراءهَا.

كنتُ آنذاك أحتاجُ إلى مُساءلة تاريخ شعري مغربيٍّ، في ضوء مُساءلة المغرب وثَقافته، وتوضيح وجْهة نظري في القصيدة. التصورُ ذاتُه هو ما يضيءُ لي (على الأقل) القصيدةَ التي أكتُبها وأنا في الطّريق إلى القصيدة. اللغةُ والفضَاء، ثم الجسَدُ والمجْتمع. في اختبار الكتابة كان لي الهبوطُ إلَى السّراديب. هل كنتُ في هذا الهُبوط أبحثُ عن بداية مُخْتلفة؟ ربّما. ما أعلمُ هوَ أنّ معارفَ تقاطعت في صيَاغة ما أصبحَتْ عليه قصيدَتي في الكتَابة. الشعريةُ، الفلسفةُ، التاريخُ، التصوفُ. معارفُ تُلازمني جنباً إلى جَنْب مع الفُنون التشكيلية، المُوسيقَى، المسرح، المعمار. وهيَ (وسواهَا) مجتمعةً تنصتُ إليْها الكتابةُ في مُمارسةٍ تمتدّ في القصيدة مثلما تنتقلُ إلى المقالة أو الدّراسة أو التّرجمَة. ومعَها بناءُ القصيدة ينْفتحُ على الموزون وغيْر الموزُون، على الصّفحة الواحدة والصّفحة المتعدّدة، على البيْت والآية، على العمُودي والأفقيّ. تجربةٌ تظل مفتوحةً لأنّ الكتابةَ كلمةُ جسَد يُقيم في الشّهوة والشّطْح.

وبدلاً منَ الانْجرار إلى ما يتعارضُ مع القَصيدة (أوْ يمنعُها)، حوّلتُ وجْهتي نحْو العالَم، أبادلُه التّحية والحوار. في فُسحة العالَم رحمةٌ هي بدورها تعضّد مُقاومتي من أجْل القصيدة وحُريتها. وكثيراً ما دافعتُ عن هذَا الاخْتيار، لاَ بالنّسبة لنفْسي وحْدها، بل بالنّسبة للشّعراء المغاربة الذين كان مُتخيَّلٌ مريضٌ، عن أنفسهم وعن سواهم، يحْتجزُهم. وجْهةُ العالم هي وجْهةُ كلّ قصيدة حديثة. وهي، في الوقت نفسه، وجْهةُ الاختيارات الشعريّة الكبرى. كانت تلكَ وجْهتي في شبابي من خلال القراءات والأسْفَار. على أن المعرفة الشعريّة التي اكتسبتُها أدّتْ بي هي الأخرى إلَى تبادُل التّحية والحوَار معَ العالم. وأبعدُ ما

تعلمتُ هو أن القصيدة الحديثة لا حدودَ لها، وأن الدائرة المغْلقة التي تزجّ فيها القصيدةُ العربية نفْسَها، بخلاف قصيدَة الستينيات في كُل من العراق وسوريا ولبنان ومصر، ليسَتْ معيارَ القصيدة الوحيدَ ولا مسارهَا الوحيد.

أنا اليوْم قريبٌ من تاريخ قصيدتي أو بعيدٌ عنهُ. أطل على القصيدة، في تاريخها، فأفزعُ من حَماقات وإخْفاقات. ذلكَ هو طريقُ البحْث عن المجهُول، عَن المسْتَحيل. وما أسْتخلصُه هُو أنّ القصيدة تُكتَب في الزّمن وتنصتُ إلَى الزّمن. زمنُ القصيدة اليومَ لم يعْد هو زمنُ القصيدة في ما قبل التّسعينيات من القرْن الماضي. معْنَى اللغة، تحديداً. منْ تاريخ القصيدة أسألُ منْ جديد: ما وضعيةُ اللغة، اليومَ، في زمن العولمة؟ ولأيّ شيء تنفعُ القصيدةُ في زمن يَنْفيها؟

سُؤالان ليس بالإمكان الاستمرار في الكتَابة دُونَما وعْي بهمَا، في القصيدة وخَارجَها في آن. يعْسُر هذا أحياناً. فزمنُ ثقافة الإعلام والاستهلاك، الذي نعيشُه، يُقلّص فضاءَ الرؤية حتى يختفي. ثمة انطباعٌ بأننا نعيشُ اليوم زمن الرواية. إنه انطباعٌ تسْتسلم إليه كلّ قراءة سَطْحيّة لا تلمسُ الأعمقَ في دَلالة الزمن، الذي هو زمنٌ ثقافة الإعلام والاستهلاك، أيْ أنه زمنٌ مُضادٌّ للرواية بقدر ما هو مضادّ للشعر، زمنٌ مضادٌّ للأدب. هنا تكونُ المعرفة صوْتاً منْ أصْوات المقاومة التي تتشبّثُ بها القصيدةُ في مستقبلها. للمعرفة قوةُ العوْدة بالسّؤال إلى الماضي، وقوةُ رفْع الحُجب عن القصيدة. وإذا كانت القصيدةُ تتعرّض في العالَم لسياسَة التخلّص منْهَا، فإن القصيدة تُبادر بالمقاومة، جَواباً على ما تقودُها العولمةُ إليه منْ هجْران. مقاومةٌ من أجْل أن تبقَى القصيدةُ، بما هي مُستودع أسْرار كبرى، أيْ لغةُ المجْهُول واللانهائي، حاضرةً بيننا، تحتضنُ الإنساني الّذي لا تتخلى عنْهُ القصيدة. إنّها ضرورة القصيدة، ولها مرتبةُ الحقّ. تلكَ الضرورةُ، كما تتشبثُ بها قَصيدتي، تتمثّل في استدامة اللّغة. فالشّعْر جمرةُ اللغة. وهيَ العربيةُ كما أسْعَى في قصيدتي إليها، حتّى يَستديم الميرَاث. لكنّ الجمْرة تتّقد، تتوهّج وتَسْتدعي

الحُرّ والجميل، حينما القصيدةُ تكُون سعيدةً باستضافة الغَريب، الأجنبيّ، وفقاً لآداب الضيافة.

استدامةُ الميراث وضيافةُ الأجنبي، الغريب. بهَذا تُنصت القصيدةُ إلى زَمنها، متحررةً من وهْم تَغْيير العالم. وهيَ، بدلاً من ذلك، تُقيم في أرضْ اللغة، حيث الخفيفُ، الموشْوشُ، اللاّمسموعُ، اللاشكْلَ له، أجلُّ مكان تُقاوم به القصيدةُ هجْرانَ اللغة. هناك تبقى قصيدتي، وفيةً للمستقبل، وعداً يتقدم نحْونَا كلّما أنصتنا إلى أصوات القصيدة.

رسالةٌ إلى عبْد اللّه راجِع
عن هذَا المغرب اللاّثقـافـي*

عزيزي عبد الله

أكتبُ لك الآن هذه الرسالة، في الوقت نفسه الذي يجلسُ فيه أصدقاء لنا آخرون ليُشاركوا في ندوة عنك في معرض الدار البيضاء الدولي للكتاب. يوم الثلاثاء. 12 فبراير. 2008. الساعةُ الرابعة والنصف مساء. أحمد بلبداوي. علاّل الحجام. بنعيسى بوحمالة. وإدْريس الملياني منسق الندوة. أتخيّلُهم الآن يأخذون أمكنتهم في صدر القاعة أو يتبادلون التحية، قبلَ الجلوس. هُمْ هناك في قاعة الأنشطة الثقافية التي تحمل اسْم إدريس الشرايبي. وأنا هنَا، في البيت، صامتٌ، ممنوعٌ من الحضور إلى جانبهم. منظمو الندوة فضّلوا الاستمرارَ في المكيدة والمكيدة، عناد الفصْل بينكَ وبيني. أنتَ تعْلم ذلك جيّداً وخبيرٌ به. هؤلاء المنظمون لهُمْ اسم حسَن نجْمي ممثلاً لوزارة الثقافة، التي سلّمتْ له، فيما يبدُو، أمْرَ هـذه الندوة (وسـواها). هُمْ هناك يجْلسُون. حضورٌ يملأ القاعة. وأنا هُنا. أكتبُ الكلمَات التي

*) القدس العربي، لندن، في 2008.2.22.

هجمَتْ عليَّ كما تهْجُم عاصفةٌ ثلجيّة أو رمليّة. عاصفةٌ تنتزع منّي يَدي وتُلقي بهَا إلَى نَار الكتابة، أقصدُ الألَم. الحدَاد. حاولتْ أُمامة صدّي عن التألّم. والحزن. والمبالاة بما يفْعَلُون. وافقْتُـها. ولكنّ يدَي الآن هاجمةٌ عليّ.

مَنْ يعلُم أكثرَ منْكَ أننّا عشْنا زمناً قاسياً، وأنّنا، جنباً إلى جنْب، تقاسَمْنا علناً أو بالتواطؤ ذاكَ الذي كانَ علينا فعْلُه كيْ نُقاوم زمَن التّدمير؟ المؤسسةُ الحزبية مجسدنةً في «اتحاد كتاب المغرب»، أو جريدة «الاتحاد الاشتراكي» (ولهَا سلسلةٌ من الأسماء) كانَتْ ورثَتْ (وليسَتْ وحْدَها) تاريخاً من إخْضاع وتبعية الثقافي للسيّاسي. كنّا في الشّعر، كمَا في «الثّقافة الجَديدةِ» أو البحْث في الشّعر المغربي المعَاصر، مُتضامنين. تضامُننا لم يكُن يحْتاج إلَى وثائق إثْبَات. كنّا كل أسبوع نتبادَلُ الرسائل بيْنَ المحمدية والفقيه بنْ صَالح. ثم اللّقاءاتُ الأسبوعية، لا حقاً، في بيتك بالحيّ المحمّدي بالدار البيضاء. سنواتٌ عَديدات تُقارب العشْرين. وتلك الحياةُ المشتركة التي كُنا فيها نتقاسَمُ ألَم اخْتيار حريتنا في بنَاء قَصيدتنا وفي الدِّفاع عنْ فكرة جَديدة للشّعر والثّقافة في المغرب. مَا الّذي كان لنَا أكثرُ من ذلك؟ لاَ شيْء. لم يكُن يخْطُر ببالنا أننا نبْحَث عن امْتياز مَا أوْ عَنْ منْفَعة. كنّا نحْفر بحثاً عن الطّبقات السّفلى لليُتْم والأسْئلة. وفي الحفر كان عذابُ المطارِدَة يزدادُ ويقْوى ويبْطُش.

كان ممثّلو المؤسّسة (التّقدمية) يُدركون أنّ سرَّ ما نفعلُ يكْمُن في أُلْفتنا وأخوّتنا. تلكَ النقطةُ المضيئةُ هيَ ما أجهدوا أنْفُسهم ليْلَ نهار لسـدّها. ولنَا معاً منَ الحكايات مَا لا يُحدّ. لكنّنا، مع ذلك، فعَلْنا ما لَمْ يقدر أحدٌ منْعنا منه. استمرّت «الثقافة الجديدة» لمدة عشر سنوات. بعْدَ المنع، استجبْنَا لنداء صديقنا الكبير محْمُود درويش لاسْتضافة العدد الحادي والثلاثين في مجلة «الكرمل». وكانت لنا المغامرةُ في كتابة قَصيدة مُخْتلفة. تجرّأنا على الفضَاء في القَصيدة وعلَى الخط المغربي، الذي كانَ صِنْواً للرّجعيّة في وعْي النخبة «التّقدمية» آنذاك. ثم كان لنا الأُفق المفتوحُ لرؤية القَصيدة بجَمالية مخْتلفة، في زَمن لم يكُن أحدٌ من الشعراء الأكبر منّا سنّاً يجرؤُ

على أن يكتُب كلمةً واحدة عن نَموذج القصيدة السائد. كان لنَا جُنونُنا. جنونُ الحرية. وكنّا نشْهَر هذه الطاقةَ المدهـشة لنَا قبْل غيْرنا. لم نكُن نعرفُ كيْف كنّا ننْجحُ في اخْتراق مدَارات القَسْوة والتخّلف والفَقْر. كنا نفرحُ بكلّ عدَد نُصدره من المجلّة. وفي كلّ لقاء بيْنَنا كُنا نفكّر في القادِم. أمَا مَاضي الثّقافة المغربية فقد كُنا علَى الدوام نتذكّره من خلال ما تـنْسَاه الحياة الثقافية في أيامنا.

أتخيّل أصْدقاءَنا الآن وهُمْ يبدأون حَديثهم. لا أعلمُ مَا الذي سيتكلّمُون عنه. لكنني أتخيّلهُم يستحضرُون شعرك. صَداقتك. دراسَتك. أسلوبَك في الحياة. مرضَك وموْتَك قبل أوان الموت. مآلَ أعْمالك بعد الوفاة. مشاكلَ العائلة وأوْهام الإرث التي حالَتْ دون إعادة نشر أعْمالك أوْ نشر ما خلّفْتَه. كلّ هذا محتملٌ تَقُول لي مُخيلتي. محْتملٌ جدّاً. ولعلّهُم سيقولون أكثرَ منْ ذلك. ربّما أبعدَ وأغْنَى. فشكراً لهم.

لا ألتفتُ إلى إلْغائي منَ المشاركة في الندوة عن صَديقي الشاعر سركون بولص (وربما كنت الوحيد الذي كتبَ عنه من المغرب على إثر وفاته، دون الحديث عن علاقتي الشخصية به منذ 1988)، ولا من الندوات التي خُصّصَتْ للشعر العربي الحديث وشارك فيها أصدقاء قادمُون من أقطار عربية. لا ألتفتُ لأني تعوّدْتُ على إلغاء كهذا، في مناسبات تتكرر. لكن استبعادي عن الندوة المخصصة عنك لهَا أكثرُ منْ معْنى. لذلك أتساءل: لمَاذا تَسْتبعدني وزارةُ الثقافة منْ لِقَاء كهذا؟ ما يدفعني لطرح السّؤال هُو ظنّي أنّني ما زلتُ على قيْد الحياة، وأنّ المدعوين للمشاركة في الندوة من القَريبين منْكَ ومنّي. يعْنى أنّها ندوةٌ تفْترض استدعاء حَياتك وأعْمالك من خلال ذاكرة أصْدقائك. فهَلْ استبعادي يعْني أن حيَاتنا التي تقاسَمْناها كانَتْ مجرّد وهْم؟ وهل أنا أقلُّ معرفةً بك من أصدقائنا الحاضرين؟ ألمْ أكُن الشّخصَ الذي حرّضَك على طبْع ديوانك الأول في مطبعة دار الكتاب وتشرف بالإنجاز؟ ألمْ أكُنْ الوحيدَ الذي تركْت له وصيةً فيما أعلم؟ ثم ألمْ أكُن الوحيدَ الذي سهِر، من

بين الأصدقاء، على جَنازتك ورافقَك إلَى مأواك الأخير وكتَب عنْك؟ هيَ أسئلةٌ عن لحظات رمزية فقط، لا عنْ حَياة مُشتركة بيْنَنا.

قد تكونُ كلّ هذه الأسئلة بعيدةً جداً عن هذا الزمن الثقافي الذي نحياه اليوم، في حالة فريدة من الالتباسات، الثقافية والسياسية والأخلاقية. فنحن في زَمن يسودُ فيه اللاّمعنى. اللاّثقافة باسم الثقافة. اللاّأخلاق باسْم الأخلاق. المنافعُ باسْم التَضحية. إتقانُ التّدمير باسم الانْفتَاح. هُناك مَا لنْ تصْبرَ على سمَاعه أو معْرفته. مسرحيةٌ كبرى لها الأبهة والجَلال. ولا ينقصُها ممثّلون ولا ديكورٌ ولا ضَجيج. كلّ ذلك مجهّز بما لا يسمحُ لأحد أن يكتشفَ بسُهولة ساحةَ الإعدام المختفية وراءَ الاستعراض الحافل بأكاذيب الثقافة والحداثة.

أنا لا أريدُ أن أزعجَ راحتك أيّها الصديق. لكنّي مِنْ هذا الغَوْر أكتبُ لك كَلماتي حتّى تبْقَى أنتَ حاضراً بقوة في حَياتي كما كنت في حَياتنا المشتركة. من العبَث أن أكرّر ما كتبَه القدماء كلما فقدُوا عزيزاً عليهم، مرددين: «لماذا ذهبت وتركتني؟» ألـم يكن منَ الأجْدى أنْ أمُوتَ قبلك أو أن نموت معاً؟ معَ ذلك أحبّ أن أخبرك بأن وزارة الثقافة أقْصَتني، لأوّل مرة، منْ جميع أنشطة المعرض، كأنّما تقـول لي : «تعبْنا منْك. تعبْنا منْ كتَاباتك وأفْعالك التي تسمّيها ثقافيةً وما هي كذلك. غادر الحياةَ بلُطف لأننا نَصبْنا لكَ مشْنقة في منطقة خلفية لا يراها أحَد. هناك هيّأنا لكَ شنْقَك وقَبْرك. غادر المغربَ قبل أن نُنفذ الحكْم، الذي لا استئناف فيه ولا عفْو. هذا البلدُ ليْس بلدكَ. وهذه الأرض تُنكرك. كُن لبيباً. وغَادرْ. لكَ الوقتُ الكافي لتدفن نفْسَك بنفْسك. أجملُ اختيار هو هذا الذي نفضّله لك». كلامٌ كنتُ أسمع أصداءه وأنا أدخُل إلَى قاعة المعرض الكبرى. وكنتُ أحسّ في نفسي بمغرب آخر ينتفضُ ويُزيل اللحد. المغربُ الذي لَنْ أفارقه، لأنّي مغربياً كنت ومغربياً سأبقى. حتّى أصدقائي الذين وفَدُوا من الخارج كانوا يبدأون بالتساؤل البريء عنْ غيابي فيخبرونَهُم بأني على فراش المرض. أنا، كما تعْلم، كنتُ مسافراً قبل أسبوعين في

لُندن، حيث شاركتُ في لجنة تحكيم الجائزة العالمية للرواية العربية. ثم ألقيتُ، بعد العودة، دُروسي كالعادة في الكلية يوم الجمعة، يوم افتتاح المعرض.

لذلكَ كلّه أكتبُ لك. فالرّجاء ألاّ تثق بكَذبهمْ عليّ. وأنا أعلمُ أنّك تدرك اللّعبة جيداً. هذه الحياةُ أحياها بمشقة في المغرب، حياة ثقافية أزداد فيها اختناقاً ولا سبيلَ حتّى إلى الصّراخ. وإن أنا حاولتُ أنْ أنطقَ برأس جُملة، منْ خارج المغرب، سارعت كلاَبُ القبيلة بمُطاردتي، في وسائل الإعلام المتناسلة، وحمْلي إلَى ساحة الإعدام. الحجّة جاهزة. كاذبٌ ككلّ الشحّاذين. وضيعٌ ككل المَارقين. متغطرسٌ ككل السّفَلة.

هؤلاء الذين يُلغونني اليومَ هُم في الحقيقة يلغونُك أنتَ أيضاً، يا عزيزي عبد الله. وإن كانُوا يدّعون أنهم يحبّونك، كما أوهمُوا في حياتك، فلَنْ تجدَ في كتاباتهم شيئاً يؤكد ما يدّعون. ما يهمّ اليوم هُوَ أن أجلس قريباً منك، أكلمك بهذا الوحدة التي تجمعُنا وفي هذا الصمت الذي لا يُفارقني. مُجالستي لكَ هي قدْرُ الوفاء بيننا، بالطريقة التي نَرتضيها لأنفُسنا. معاً نضحك، ثم كل واحد منّا يُصاحب الآخرَ في السريرة.

ولا شيءَ من هذَا المغرب اللاّثقافي يَعْنيني أو يُغريني. أنظرُ إلى ما يحدث وأستحضر تاريخ الثقافة المغربية الحديثة. أستمرّ في فعْل ما يُقنعني وترتضيه نفْسي، حرةً، مسكونةً بالمجهُول وبالمستحيل، فرحة بالصّداقات البعيدة والقريبة، التي تعضّد وتنتصرُ للقليل، الأعزّ، الكتابة. أتذكّر ملعُونين لمجّرد أنهم كانوا أباة، يتفكّرون بكبْرياء الخلاّقين في الزمن والحياة والمصير. حيواتٌ عديدةٌ تتجمّع حولي. تكلّمني وتنصتُ لما أقول ومَا لا أقول. بيْني وبيْنَها ما كان بيْنَك وبيني. لا أسفَ ولا ندَم. كأسُ الشّاي قريبٌ من يدي. سماءٌ بأزرقها الكليّ. وفي عتَمات النّفْس ما يُغني. يوَشْوشُ وحْده. هذا الصّمْت.

أضمك وأسعد بك.

أخوك



فهرس

للمؤلف

شعر

ما قبل الكلام

مطبعة النهضة، فاس، 1969.

شيء عن الاضطهاد والفرح

منشورات ا.و.ط.م.1972.

وجه متوهج عبر امتداد الزمن

مطبعة النهضة، فاس، 1974.

في اتجاه صوتك العمودي

سلسلة«الثقافة الجديدة»، الدار البيضاء، 1980.

مواسم الشرق

طبعة أولى، دار توبقال، الدار البيضاء 1986.

طبعة ثانية، الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1986.

طبعة ثالثة، دار توبقال، الدار البيضاء 1990.

ورقة البهاء

دار توبقال، الدار البيضاء 1988.

هبة الفراغ

دار توبقال، الدار البيضاء 1992.

كتاب الحب

عمل شعري ـ فني مشترك بين الفنان ضياء العزاوي

طبعة أصلية لندن ـ الدار البيضاء 1994.

طبعة أولى، دار توبقال، الدار البيضاء 1995.

المكان الوثني

دار توبقال، الدار البيضاء 1996.

هناك تبقى، دار النهضة، بيروت، 2007

نصوص

شطحات لمنتصف النهار

المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ـ بيروت، 1996

العبور إلى ضفاف زرقاء

تبر الزمان ـ تونس 1998

سبعة طيور

منشورات الدار، القاهرة، 2010

دراسات

ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب

طبعة أولى، دارالعودة، بيروت 1979.

طبعة ثانية، دارالتنوير، المركز الثقافي العربي، بيروت ـ الدار البيضاء 1985.

حداثة السؤال

طبعة أولى، دارالتنوير، المركز الثقافي العربي، بيروت ـ الدار البيضاء 1988.

الشعر العربي الحديث بنياتها وابدالاتها

دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، (1989-1996).

الجزء الأول، تقليدية، 1989.

الجزء الثاني، الرومنسية العربية، 1990.

الجزء الثالث، الشعر المعاصر، 1990، طبعة 2، 1996.

الجزء الرابع، مساءلة الحداثة، 1991.

كتابة المحو

دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1994.

ترجمة

الاسم العربي الجريح

عبد الكبير الخطيبي، دار العودة، بيروت، 1980.

الطبعة الثانية، منشورات عكاظ، الرباط، 2000.

الطبعة الثالثة، دار الجمل، ألمانيا، 2008.

الغرفة الفارغة (شعر)

جاك آنضي الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1996.

هسيس الهواء (أعمال شعرية) برنار نويل

دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1998.

قبر ابن عربي، يليه آياء، (شعر) عبد الوهاب المؤدب

المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1999

رمية نرد (قصيدة)، ستيفان ملارمي، طبعة مزدوجة اللغة

دار ابسيلون، باريس، 2007.

الطبعة العربية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2007.

القدسي (شعر) جورج باطاي

دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2010.

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

كلامٌ كان ينبثق في غفلة عنّي. ويدي كانت تُلازم تلك الانبثاقات. مرة بعد مرة تكتبُ مذكرات، في شكل نصوص لها وضعُها الشخصيّ. لم أمنعْها ولم أتخلَّ عنها. تركتها حرة. فهي كانت تفاجئني بعالم مجهول لا أعرفُ أين كان من قبلُ يختفي أو كيف كان يهجم في أوقات مباغتة. توتراتٌ في أقصى حالاتها. ويدي تكتبُ المنفلت، المتمرّدَ، المُخيف. كلامٌ ينفجرُ شطحاً بين الأصابع. وأنا أستقبله. ذلك نفسُه ما يأمرُ به قارئه، الذي يقبلُ بجسد قارئٍ حيّ، يستقبلُ بدوره كلام الجسد، الشطح، فلا يتخلّى أو يتراجع. سيكُونُ مع المحسُوس، الحيويّ، الرّاقص. وكما أنّ كلام الجسد لا نهائيّ فإن قراءته لا نهائية. لها التوليدُ والتأويل. وفي كل مرة تدلُّ على فضاءات مُقبلة من المُستقبل، في المُستقبل.

بذلك أمرني كلامُ الجسد، بعد أن استحوذ وملك، في نصّ، تركيب، كتابة. هناك، في هذا الكلام، ما يلمعُ بغير المُطمئن. وأنت تعثرُ على أنفاس تنتعش، تتعرّى. جسد يتكلم. ولك نعمةُ أن تكتب.

مكتبة
الأدب
المغربي

سامراء